
LASHEEN
EL SHAMANDORA TALES
عدد
خاص
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com
شيرين هنائي
لاشين
الكتاب الخامس - حكايات الشمندورة
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE
كتوبيا
رواية

مقدمة

أنا.. لاشين.

لا شك أنها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها، إلى جانب كوني الأول، والأخير. ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة ما مررت أنا به، ولا ما تسببت فيه، ولا ما أصبحت عليه.

أي لاشين آخر لا يُعوَّل عليه، سواء كان من عائلة الدجَّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أي لاشينٍ آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهي الأزمة التي تسببتُ فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الأمر أن أحكي؟ لم أدرك ضرورة ذلك إلا مُتأخرًا، وكأن لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا ما أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فبماذا ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعلٍ بشريٍ أخير، ولأنني وعدت سهير زاهر، سأحكي.

الفصل الأول

-١-

طنطا - مارس ٢٠٢٢

يغطي التراب خشبة مسرح الجامعة، وتنقش آثار خطوات الطلبة ورقصاتهم المجنونة أشكالًا تثير الخيال على سطحه.

اعتلى أسامة الصاوي المسرح متخففًا من سترته، رامقًا الكشاف العملاق المصوب إليه من آخر صفوف مقاعد المتفرجين. ثلاثون عامًا انطوت في لحظات، وعاد أسامة، ابن العشرينات، نجم مسرح الجامعة.

تردد صوته العميق:

-إن أقوى خصم للإنسان دائما هو شبح..

يكاد يرى سهير شابة، في قميصها الصبياني المُخطط وشعرها القصير تتابعه في انبهار. فلاش كاميرتها يضوي في عينيه فيختلج قلبه..

- شبح يطلق عليه اسم الحقيقة..

يسير ببطء، يتدلى كتفاه في يأس، يستعيد ذكرى الدموع المحتشدة في عينيه يومها، سعادة تكاد ترفع قدميه ليطأ السحاب.. يبتسم قلبه رغم قناع الحزن الذي يرتديه..

- لكن ما قيمة هذه الحقيقة ما دمنا سعداء؟

قالت له أنها تحبه، لم يصدق أن تلك الفاتنة الصغيرة رأت عبر جسده الممتلئ وشعره المُجعَّد حقيقة الروح الخفيفة

المشاكسة، المسجونة في صورة لم يخترها. قالت له أنها تحبه، ثم صعد بعدها على المسرح. يصفق الطلبة فتحمر وجنتاه كأنما قد كشفوا سره الوليد؛ هي تحبه..

- يا له من مصير.. إني بطل، لأني قتلت وحشًا زعموا أن له أجنحة. وإني مجرم لأني قتلت رجلًا أثبتوا أنه أبي.. وما أنا ببطل ولا بمجرم..

خذلها، مرات ومرات، خذلها ضعفه وخنوعه وخوفه الزائد عليها. خذلها تخليه عن الأحلام والفن. دوامة لقمة العيش سحبته في دورانها حتى تهدل لحمه وترهلت روحه. تقول أنه بطلها، أبو ولديها. لكنه يعلم الحقيقة، هو لم يكن بطلًا قط، ولن يكون..

- لكني واحد ممن ألقت عليه الناس أوهامها، وألقت عليه السماء أقدارها، فهل ينبغي لي أن أختنق تحت إصر هذه الأردية التي ألقيت عليَ؟

يصمت أسامة، تعود الموجودات من حوله، رائح السجائر والعطور والعرق، المسرح المترب، أعين ستة من الطلبة تحدق به في وجوم. ينتظر أن يقفوا مهللين للأداء المُعجِز، فلا يتحرك أحد. يتوقع أن يجاملوه ويثنوا عليه، فينظرون لبعضهم البعض ثم ينقلون أبصارهم إلى شريف -ابنه- الذي ينضح جبينه بالحرج.

يهمس له شريف وهما في سيارة أسامة المازدا ٩٢٩:

- كان هذا أداءً رائعًا يا أبي، لكن النص.. قديم بعض الشيء..

- مسرحية الملك أوديب لتوفيق الحكيم قديمة بعض الشيء؟!

هل يقدُم الفن؟

- بالطبع لا، لكننا نريد نصًا أكثر.. شبابية؟

- وما مقترحاتكم؟

- رواية جديدة لـ...

- سمعت عن هذا الاقتراح ولا أراه ملائمًا للعرض في الجامعة.

- نحن نراه ملائمًا يا أبي. قُل لي ما هي حدود ملائمة النص؟ ما هو النص المثالي بالنسبة لك؟

يزفر أسامة وهو يُبطئ السيارة أكثر، ربما ليثير حنق شريف بقيادته المُتأنية، وربما ليُهدئ من ردود أفعاله المُنفلتة.

- أنتم قرروا ما تريدون، ما عليَّ سوى الإشراف على التمثيل. انسَ كل شيء يا شريف.

- أبي..

- هل ستصحُب والدتك وخالتك اليوم ليشتريا فستانين لحضور العُرس؟

كعادة شريف حين يتوتر أو يشعر بالحرج، راح ينظر من نافذة السيارة ويحرك قدميه في عصبية. قال أسامة وهو ينظر سريعًا نحو قدمي ابنه:

- ستنظف التراب الذي سقط من حذائك على أرضية السيارة.

لم يرُد شريف، ولم يُعاود أسامة الحديث في أي أمر.

***

وقف شريف خارج متجر الملابس مُنتظرًا انتهاء أمه وخالته من اختيار ما يناسبهما. الخميس التالي هو موعد زفاف ابن عمه عصام، والذي يعتبر أسامة بمثابة أبيه؛ توفي إسماعيل الصاوي شابًا، تاركًا أرملته وطفله في عهدة أخيه الأصغر أسامة الذي لم يتأخر قط في تحمل كافة مسؤولياتهما المادية والمعنوية.

طلب شريف رقم ابن عمه وبارك له مرة أخرى مُعتذرًا عن الحضور.

أنت تعرف يا عصام مشكلة مرض عُمر. لا يمكن أن نترك رانيا أختي وحدها معه، ولا يمكن أن نصحب ابنها معنا.

قال عصام مُتفهمًا:

- أعرف كل هذا يا شريف، هذه رابع مرة تعتذر لي فيها. كنت أتمنى أن تكون معي، لكنني أتفهم ظروفكم.

- خالتي رجاء آتية، سيكون حفلَ زفاف أسطوريًا في حضورها.

ضحك الشابان، فقد كانت رجاء سليطة اللسان رغم طيبة قلبها، ووجودها في الحفل مهم. فعائلتا أسامة وسهير أقارب من درجة بعيدة، لكن بعد زواج الأخيرين، تقاربت الصلات أكثر وصارت العائلتان واحدًا من جديد.

دون مقدمات سأل عصام بصوتٍ جاد:

- شريف.. هل تؤمن بالإشارات؟

- إشارات؟

- أعني.. هل قررت يومًا أن تذهب إلى مكان معين، لتجد أن

المصائب تنهال عليك وتمنعك عنه؟

- أفهم.. لو حدث هذا فأنا أفضل السير إلى وجهتي مهماحدث وأتحمل العواقب. إن كانت إشارات، فهي تعتمد على تفسيرك لها وانحيازاتك ومخاوفك الشخصية. كيف تثق في تفسيرك وكيف تعرف أنه الحقيقة؟

- أنت تتحدث مثل عمي.

- أنا ابنه! هذا منطقي! المهم، هل ترى إشارات أمامك الآن؟

- أجل. هل تذكر ما كان يحدث لي في الماضي؟ لقد عاد بعد توقف أكثر من خمسة عشر عامًا منذ تحديد موعد زفافنا، وتحدث لي أمور غريبة تنكسر عويناتي، وتظل تنكسر مهما أصلحتها تتعطل سيارتي مرارًا دون سبب، تنفجر مواسير المياه في شقة الزوجية فور تركيبها.. اليوم مثلًا تعطل هاتفي المحمول وأنا أكلم نهلة، واضطررتُ لنقل الشريحة في هاتف أمي الذي فرغت بطاريته بمجرد أن أعدت تشغيله. أرسلت الهاتفين للإصلاح، ولم أجد فيهما أية أعطال، وقد زال العطل تلقائيًا منذ سويعات.

- كان قرار عدم مجيئي صائبًا إذًا.

- ماذا تعني؟

- قد تغرق المركب النيلية التي تقيمون فيها الزفاف بعد كل هذا النحس الذي تحكي عنه، أو.. بعد عودة عفريتتك الغيور.

وضحك شريف، لكن عصام لم يضحك.

في الطريق من طنطا إلى دسوق اكتشفت سهير أنها لم تُخرج من حقيبتها كتاب «البُلهان» الذي أرسلته لها منذ شهر وطلبت منها أن تحتفظ به معها دومًا تحسُّبًا للأسوأ بالطبع توقعت أنها لن تُطيعني فورًا، لكنَّ جزءًا من روحها يثق بي ويعرف أنني مهما بدوت للجميع شيطانًا، فأنا لن أضرها أبدًا.

بالطبع تعرفون أن سهير عملية للغاية، ليس لديها سوى حقيبتين، واحدة لمتعلقاتها الشخصية، واحدة لكاميرتها، تضع فيهما كل شيء تحتاجه ولا تكترث لتفريغ محتوياتهما أبدًا، ولا تُفكر في استخدام سواهما حتى في المناسبات.

أغلقت سهير حقيبتها سريعًا قبل أن يلفت الكتاب نظر رجاء الجالسة خلفها على أريكة السيارة. بين الحين والآخر ترتكز العجوز بكفٍ واحدة على عصاها وتدفع كتف أسامة وتهتف:

- حاذر السيارات يا أسامة. لا يصل أحد قبل موعده.

يبتسم أسامة ويُثبِت لها أنه يحاذر السيارات، فيُبطئ السرعة ويرفع صوت إذاعة القرآن الكريم في المذياع كي يقطع عليها حبل النصائح التي تُربكه.

يعلو صوت رجاء وهي تدفع كتف سهير:

- لماذا لم تسمعي كلامي وتشتري الفستان الآخر اللامع؟

- يا رجاء، الحفل سيبدأ بعد العصر، كيف أرتدي فستانًا لامعًا في وضح النهار؟

- لا أعرف سر ولعك بالبذلات الكئيبة.

- أحب أن تكون حركتي خفيفة يا رجاء.

- أجل.. أنت لا تهمدين، مثل «فرقع لوز».

لحظات تصمت فيها رجاء، ثم تُمسك كتف سهير وتسألها همسًا:

- ماذا في حقيبتك؟

- ماذا؟!

ترتبك سهير كعادتها أمام أختها الكُبرى التي تعرف أكثر مما ينبغي دومًا. لا مفر من أن تناولها حقيبتها قبل أن يلاحظ أسامة أو يسمع شيئًا. ألقت رجاء نظرة داخل الحقيبة ثم رفعت حاجبيها. أعادت الحقيبة لسهير ثم مالت تهمس:

- لم أرَ في حقيبتك هدايا سرية منذ كنت مُراهقة يا سهير، وقد تزوجتِ من كان يرسل لك الهدايا. حافظي عليه.

كانت هداياي لسهير لا تتوقف، وكلها لا تتوافق تمامًامع رؤية رجاء لمعناها. أنا أرسل لسهير ما أراه مهمًا في مشوارها كمُحققة ما ورائيات تسعى لاستكشاف عالمها وعالم الظلمات الذي ورطتها فيه، وأرسل لها ما يخدم كوننا فريقًا واحدًا ضد أهوال الكيانات الخفية، أما مسألة تواجدها الدائم فيما تبقى من قلبي البشري، فهو أمر يخصني وحدي.

كتاب «البُلهان» الذي جمعه عبد الحسن الأصفهاني في نهاية القرن الرابع عشر، ورسمه بنفسه، من أغرب الكتب التي أملك منها مخطوطة أصلية حصلت عليها من العراق.

في هذا الكتاب رسوم للجن والشياطين ومعلومات عنهم وعن أسمائهم ورُتبهم. عرفت من تجربتي الخاصة أن ما ورد فيه ليس

صحيحًا تمامًا، لكنني أعتبره نظرة خاطفة على عالم الظلمات، أو انطباع عقلٍ بشري عن كيانات لا يستطيع إدراكها بالكامل. لن أذكر بالطبع ملحوظات الساحر العراقي على هوامش الكتاب ولا التحصين المُبهر الذي وضعه عليه. هذا كتاب -أحدثكم بأمانة- يستحق القتل من أجله.

قررت أن أرسل هذه المخطوطة لسهير، وقد نسيت أن تُخرجها من حقيبتها من وقتها، لا لشيء سوى لأنها لا تعرف أين تحتفظ بها، وقد تعمَّدَت ألا تذكرها لزوجها كي تتجنب نقاشات لا تنتهي إلى ما يُريحها أو يُطمئِنه.

أخفض أسامة صوت المذياع وسأل:

- هل هناك شيء؟

أجابت رجاء سريعًا:

- زوجتك نسيت أن تجلب لي شيئًا حُلوًا آكله إن باغتني هبوط السكري. لن أصدق أنها نسيت حقًا وكنت أظنها تخفي عني الحلوى.

- سأشتري لك ما تريدين حين نصل إلى محطة تزويد الوقود القادمة.

نظرت سهير إلى المرآة الأمامية وابتسمت، لتُشيح رجاء بوجهها بعيدًا عنها في لوم واضح ..

***

في منزل عصام –العريس- إجراءات الاستعداد للعُرس تجري على قدمٍ وساق. وصل أسامة وسهير ورجاء قُبيل صلاة الظهر، ووجدوا عددًا من أقاربهم ممن لم يروهم منذ أعوام. تبادل الجميع التهاني والتباريك.

نزل أسامة ليصلي الظهر في المسجد المجاور، فقد كانت الشقة تعُج بالنساء ولم يكن هذا مريحًا بشكل عام، بينما أصرت زوجة أخيه -فاطمة - أن تُغير سهير ورجاء ملابسهما إلى ملابس منزلية مُريحة ويجلسن مع باقي القريبات يتسامرن ويتبادلن أخبار العائلة والابناء .

كانت سهير مُتكورة على فراشٍ تمسك كوب الشاي بالحليب في يدها وتبتسم، كانت تخشى أن تدور دائرة الأسئلة لتصل إليها، وتبدأ القريبات في السؤال عن برنامجها بعد منتصف الليل، وعني، وعن مرض عُمر.

سرعان ما حدث ما كانت تخشاه سهير، وسألتها فاطمة والدة العريس:

- وكيف حال رانيا وشريف؟

- بخير يا أم عصام، حمدًا لله.

- أتمنى أن يكون ابن رانيا بخير حقًا. لم أكن أتابع برنامجك، لكن تلك الفضائح على الهواء وصلتني واضطررتُ لسماع الحلقات..

قاطعتها رجاء وهي تضع كوب الشاي على الكومود في عصبية:

- أي فضائح يا فاطمة؟ ذَكريني إن كنت نسيت؟

عقدت فاطمة حاجبيها وهتفت:

- ما حدث لعمر قضاء وقدر، أبعد الله عنه الشر. لكن هذا الرجل لاشين، ما علاقته بسهير بالضبط؟ وكيف لا ترين أن هناك فضائح ما في الطريقة التي يُحدث بها أختك؟ كيف لم تضعوا حدًا لهذه المهزلة غير الضرورية؟

- لديكِ حق يا فاطمة، علينا أن نقطع أي لسان يمتد إلى سيرة سهير، وسأبدأ بلسانك، ما رأيك؟

بصوت واهن صاحت سهير مُغالبة الدموع:

- هل تريان أن هذا وقتًا مناسبًا لحديث كهذا؟! أم عصام، إن كنت ترين أن معرفتك بي لا تُشرفك فأنا سأنصرف حالًا.

قبل أن تفتح أي من النساء الحاضرات فمها، سمعن باب الشقة يُفتح ويدخل منه عصام القادم من عند الحلاق، ومعه أسامة الذي عرج عليه بعد الصلاة وظل معه ليعودا سويًا. اندفع عصام ليُسلم على رجاء وسهير في حفاوة، لكنه لاحظ الوجوم على الوجوه، فمال على أمه هامسًا بشيء، فقالت:

- بعد إذنكن.. سأذهب لأرى إن كان الغداء جاهزًا.

خرج عصام مع أمه. تشاغلت النساء الأخريات كي لا يُعادفتح الموضوع الشائك. وضعت رجاء كفها على فخذ سهير وقالت لها بصوت منخفض:

- أكملي مشروبك يا سهير. ارفعي رأسك ولا تدعي أحدًا يهز ثقتك فيما تفعلين. لكن لا تعتبري دفاعي عنكِ موافقة على.. على ما يفعله لاشين أو ما يقوله. فقط، أعيدي التفكير في حدود

علاقتكما.

سمع الجميع صوت انفجارٍ مكتوم، ثم صوت صرخة فاطمة وصيحات عصام يطلب منها الابتعاد. هرع الجميع إلى حيث مصدر الصوت؛ المطبخ، ليجدوا النيران تشتغل في الموقد بالكامل. ظلت النساء يُكبرن ويحوقِلن بينما أسامة يندفع ليغلق محبس الغاز العمومي، وعصام يصب الماء من الصنبور على النيران.

تساءل أسامة بعد أن هدأت الأمور:

- كيف حدث هذا؟ تسريب غاز من الموقد بالتأكيد.

مدً يده يتأكد من غلق كل مفاتيح الموقد، ليجد أن مفتاح توصيل الغاز للفرن مفتوح. أغلقه، ولاحظ أن فاطمة تنظر إلى المفتاح في تعجب.

- أنا مُتأكدة أنني أغلقته أمس. أنا لم أستخدم الفرن اليوم. وإن كنت قد فتحته بالخطأ فكيف لم تشتعل النيران منذ بدأت في استخدام الموقد صباحًا؟

- ربما فتحته الآن وأنت شاردة.

- كلا.. كنت واقفة أتحدث مع عصام عند الباب ولم أقترب من الموقد.

قال أسامة أن في أيام الأعراس يزيد شرود الناس، وتكثر الحوادث المشابهة من فرط القلق والتوتر، لكن مع انصراف كلّ إلى حاله، لاحظت سهير نظرات عصام وأمه، ونظرة أسامة إلى كليهما. ثمة شيء يعرفه ثلاثتهم ويخبئونه عن الباقين.

- ٤ -

ظل أسامة يزيل بقعة صغيرة عن زجاج سيارته الأمامي في تفانٍ يُحسد عليه. كان يحب تلك السيارة ويعلم أنه لو فقدها فلن يستطيع شراء غيرها أبدًا، فصار اعتناؤه بها يصل تدريجيًا إلى حد الهوس، ومع زيادة توتره خلال العام الماضي، أصبح لا يسمح لنفسه بالصراخ والعصبية بسبب شيء إلا ما يخص سيارته.

انطلقت الزغاريد من صالون التجميل الذي تقف أمامه السيارة، فنزلت سهير وقد ضبطت عدسة كاميرتها لتصوير لحظة خروج العروسان. قال لها أسامة:

- لماذا لم تصعدي مع فاطمة وعصام لتصوري العروس؟ ظننت هذا من طقوس تصوير الأفراح.

- أنت تعرف أنني وفاطمة لسنا صديقتين، وأفضل أن ألتزم حدودي معها.

ضحك أسامة وأقترب من سهير وهو يقول:

- لا زلتِ تشعرين بالغيرة تجاهها؟ اعترفي.

بعد وفاة إسماعيل، اقترح عدد من كبار العائلة أن يتزوج أسامة فاطمة ليربي ابن أخيه، لكنه كان وقتها متزوجًا من سهير، غارقًا في حبها منذ كانا مُراهقين يسكنان ذات الحي. كانت فاطمة تعوِّل كثيرًا على زواجها منه، وقد اعتبرت رفضه هذه الزيجة إهانة شخصية لها، وقررت أن تدُس سهير بينهما ككرة تضربها كلما ندمت على حياتها وحيدة دون زواج، بينما

سهير تنعم بأسامة وحدها.

ابتسمت سهير ولم تُعلق، فقط راحت تضبط عدسة كاميراتها كي تحصل على أفضل صور في إضاءة مدخل البناية. اعتادت سهير على التميز بين مشاكل الإضاءة الحقيقة وما تلتقطه كاميرتها من عالم الظلمات من وقت لآخر، واعتادت على تعديل الصور ببرامج الكومبيوتر لإزالة أي أثر للأطياف قبل تسليمها للعملاء، لكنها الآن لا ترى أيًا مما يستدعي التعديل.

راحت تلتقط الصور منذ ظهرت العروس في أبهى حُلة، عن يسارها العريس، وعن يساره هو والدته تتشبث بذراعه. كان السُلم الذين يهبطون فيه ضيقًا وفستان العروس منفوشًا، فشعرت سهير بالقلق من أن يتعثر أحدهم.

تشير العروس في سعادة لفتاة تقف خلف سهير، فتشير الأخيرة في حماس وترسم شكل قلب بتلاقي أصابع كفيها. تقول لها سهير:

- قفي جوارها كي التقط لك صورة معها.

- كلا.. لا أحب التصوير. شكرًا لك. هل.. أنت سهير زاهر؟ برنامج بعد منتصف الليل؟

- أجل أنا.

- تشرفت بلقائك. أنا دينا، صديقة العروس.

عند نهاية آخر درجة من السلم حدث ما كان مُتوقعًا، لكن بدلًا من أن يتدحرج عصام إلى الأسفل، اندفع إلى الأعلى كأنما ركله أحدهم في بطنه ركلة أطارته حتى اصطدم بالدرجات من خلفه.

تجمع الحضور حوله وساعدوه على القيام، وهرعت سهيرلترى إن كان في وسعها فعل شيء لاحظت أن فاطمة تدفع العروس بعيدًا عنه بشكل لن يلاحظه المشغولون في مساعدة الشاب لقد صار عصام هو الابن والزوج بالنسبة لأمه، وترى أنه هو نفسه مكافأة تضحيتها بحياتها لأجل تربيته، وبهذا لها الحق في امتلاكه باقي عمره..

حتى ظهرت نهلة –العروس العقرباء كما تراها فاطمة- طبعًا، زميلته في العمل التي أغوته وسرقته منها.

كان عصام بخير، وإن اتسخت بذلته السوداء بعض الشيء. ساعده الشباب على ركوب سيارة أسامة، وركبت العروس من الجهة الأخرى، وقبل أن تركب سهير لينطلقوا إلى حيث مكان إقامة الفرح، دفعت فاطمة ابنها إلى جوار عروسه وركبت جواره. وقفت والدة العروس الطيبة تنظر إلى السيارة في قلة حيلة، وكانت تتمنى لو تركب مع ابنتها. قالت سهير باسمة:

- اركبي مكاني يا سيدتي، وأنا سأركب سيارة أخرى.

- شكرًا يا مدام سهير، أنا سأركب مع صديقات العروس، هن بناتي.

أغلقت سهير باب السيارة، ثم التفتت خلفها لتصور المجموعة.

- أريد ابتسامة جميلة..

ضغطت الزر، والتقطت صورة يبدو فيها عصام يميل برأسه نحو نهلة التي تمسك كفه وتبتسم في رقة، بينما ذراع فاطمة يطوِّق كتفي ابنها وهي تنظر بطرف عينها إلى عروسه نظرة

كارهة ... لقد فسدت الصورة تمامًا.

***

كان العرس سيقام في باخرة أقرب إلى مركب نيلية تُدعى الشمندورة، وتبعد عن صالون التجميل مسافة ثلث ساعة بالسيارة على الأكثر.

لا يعرف أسامة ما يشغّلونه هذه الأيام من أغانٍ في الأعراس، فلم يجد بُدًّا من الارتجال وتشغيل أي أغان عاطفية وجدها على هاتف سهير الجوال، وكانت بالطبع أغاني قديمة لمدحت صالح وعلي الحجار، مطربيها -ومُطربيَ أنا لاشين- المُفضلين.

كلما شغّل أسامة أغنية، انخفض الصوت تدريجيًا دون سبب واضح. كان زر الصوت في كاسيت السيارة على أعلى درجة، لكن سهير لاحظت أن مؤشر صوت الهاتف المحمول هو الذي ينخفض أمام عينيها دون أن تمسَّه. همست:

- لا بد أنه عطل ما..

- لنُشغل المذياع. الصمت أثقل من اللازم هنا.

مدَّ أسامة يده إلى زر المذياع فصرخ صرخة مكتومة وراح ينظر إلى إصبعه الذي أصيب بصعقة كهربية. وقبل أن تسأل سهير عما حدث له، تعالى صوت غير منتظم من محرك السيارة، وبدأت تتباطأ تدريجيًا. أوقف أسامة السيارة إلى جانب الطريق، وقد وتّره صوت نفير السيارات خلفه.

لقد توقف المُحرك.

ظل أسامة يضرب كفًا بكف وهو لا يفهم سر ما حدث، فقد

اعتاد على الكشف على السيارة قبل أي سفر طويل، وكانت سليمة تمامًا.

لم يستطع أن يجد فيها عيبًا، فركب العريس والعروس وفاطمة في سيارة واحد آخر من العائلة وراءهم. حاول الرجال مساعدة أسامة والإرسال في طلب مختص في الكهرباء، بينما جلست سهير في السيارة تراجع الصور التي التقطتها. تصورت أن ترى السبب الماورائي لكل هذا ظاهرًا أمام عينيها، خاصة ما حدث على سلم صالون التجميل، لكن لدهشتها كانت الصور طبيعية.

ليست كل الأمور الخارقة بهذا الوضوح يا صغيرتي سهير.. ستتعلمين..

***

الفصل الثاني

-١-

كان من المُقرر أن تُبحر الشمندورة في الخامسة عصرًا، لكن تأخُّر أسامة في اللحاق بهم لم يكن السبب الوحيد، فقد تعطلت السيارة الأخرى التي ركبها العريس وعروسه وأمه، والسبب كالعادة عطل كهربي ما.

حين وصلت سهير وزوجها، كانت الساعة السادسة والربع، وقد وصل العريس قبلهما وأصر على أن ينتظر عمه. عبرت سهير اللوح الخشبي الذي يصل بين الرصيف والمركب، مُتحاشيةً أن تنظر إلى مياه النيل التي تثير في نفسها الذعر دومًا. ظل أسامة ممسكًا بيدها وهو يميل أمامًا حتى وصلت إلى قرب الناحية الأخرى، فتلقاها شاب من أصدقاء العريس. كانت رجاء وأغلب النساء وكبار السن من الرجال يجلسون في حجرة في باطن الباخرة الصغيرة، بينما ينتشر الشباب على السطح، يلتقطون الصور مع العريس والعروس ويرقصون على أنغام الأغاني الحديثة التي انتقاها العروسان من قبل.

في السادسة والنصف أبحرت الشمندورة بركابها الذين تجاوز عددهم الخمسين بقليل، وفي السابعة تمامًا بدأ كل شيء..

***

كانت سهير تختبئ في الحجرة السفلية متحاشية أن تُفكر في أنها وسط ظلام النيل ومياهه الغامضة، انتهت من التقاط الصور المهمة وجلست جوار رجاء تسند رأسها على كتفها وتستمع للدردشات الدائرة وهي تأكل الجاتوه من طبق

بلاستيكي مُستند إلى فخذيها.

ثم بدأت الأنوار تتراقص، وساد الظلام وسكنت صوت الأغاني فجأة. للحظة امتدَّت بسهير كساعات، لم تسمع سوى الصمت، ولم ترَ سوى العتمة. نوبة هلع قادمة تكاد تشعر بخطواتها السريعة تندفع إلى عُمق عقلها وتُحرر الخوف من قفصه.

أمسكت سهير كف رجاء التي هتفت:

- اجلسوا في أماكنكم وأمسكوا أطفالكم. لا بُد أن مُولّد الكهرباء قد تعطل أو شيء من هذا القبيل. أمر بسيط.

صاح أحدهم وهو ينزل من السطح ليقف عند باب الحجرة:

- تلك المراكب تبحر بمحركات ديزيل، فلماذا توقفت عن الحركة؟

توقعت سهير أن يضيء أحدهم كشاف هاتفه المحمول، لكن هذا لم يحدث. هتفت امرأة عرفت صوتها؛ عفاف أخت فاطمة.

- كيف نفد شحن هاتفي المحمول؟

تزايدت الهمهمات، كل الهواتف تعطَّلت تمامًا. أخرجت سهير كاميرتها، ولم تكن في حالٍ أفضل. شيء ما عطَّل البطاريات ومولّد الكهرباء، بل ومحرك الديزيل.

اتسعت عينا سهير وقد تمكنت منها نوبة الهلع، سمعت صوت أسامة يناديها من الخارج، لكن صوته كان بعيدًا، يد رجاء تعتصر كفها لكنها لا تشعر بها، كأن بين الكفين حائلًا سميكًا.

تشعر بذراع يطوِّق كتفيها..

تحاول أن تُفكر في أي شيء يعيد إليها صوابها..

الشياطين تؤثر في الموجات الكهرومغناطيسية وتتأثر بها.. هكذا قال لاشين.. لكن لماذا تعطل محرك الديزل؟

يا رب.. يا رب..

سأتذكر كيف كان شريف ينام على بطني وهو طفل فيزول المغص.. هذه ذكرى جميلة... أليس كذلك؟

أسامة على خشبة المسرح بعد أن صارحته بحبي.. أسامة يُحلّق في السماء وأنا معه.. هذه ذكرى جميلة.. أليس كذلك؟

لقد نفدت بطارية كاميرتي في حضرة الشيطان جبر في رحلة اليابان.. لا.. هذه ليست ذكرى جميلة..

يا رب..

أنا خائفة! الصمت.. الليل.. النيل..

الماء يلف ذراعيه حول كتفي الرجل... أي رجل؟

لا تعرف كيف وجدت نفسها تقف عند سور الباخرة الصغيرة، وعن يمينها أسامة يُقرِّب من شفتيها كوب ماء.

وصل إلى سمعها صوت رجاء تقرأ القرآن وهي تُمسِّد على شعرها القصير.

- لا زالت تأتيها نوبات الهلع هذه يا أسامة؟

- لقد مرَّت بنوبة أقل بكثير عندما كنا في رحلة الأقصر وأسوان، ورغم ما رأته فيها لم تهلع إلى هذه الدرجة.

- هذا البرنامج يُخيفها أكثر يا أسامة. كنت أظنها تجاوزت كل

تلك المخاوف منذ زمن.

الصور لا تُظهر شيئًا.. لا داعي للهلع، لا داعي لأن تصيري أضحوكة وسط عائلتك التي دائمًا ما كانت ترتاب فيما تفعلين وتُشكك فيما تصلين إليه..

لكن.. عطل الهواتف المحمولة غريب حقًا..

ثم.. هل عاد موضوع عصام القديم؟ هل كان حقيقيًا من الأساس؟

قال أسامة لأشخاص خلفها:

- أيمكن أن يكون هناك حقلًا مغناطيسيًا هنا؟

- الباخرة تعبر هذا المكان على الأقل مرة أسبوعيًا، وتعبر عشرات المراكب النيلية من هنا يوميًا، ما الذي استجد؟ ولماذا تعطّل مُحرك الديزيل هو الآخر؟

- مصادفة؟

سأل رجل مُسِن:

- هل عطّل أحدهم المُحرك والمولّد؟

أجاب أسامة:

- وكيف عطّل الهواتف المحمولة؟

أخرج أحد العاملين على المركب النيلي موقد غاز يُشبه أسطوانة البوتوجاز، وأشعله ثم أدخله عند الجالسين في ظلام الحجرة السفلية حتى لا يهلع الأطفال. قال أنهم سينتظرون أن يمُر أحدهم بالجوار فيطلبوا منه إرسال من يُصلح المركب أو

يُعيد الرُكاب.

كان أسامة يعرف أن منظر مياه النيل المُعتمة يُخيف سهير، فصحبها وأختها إلى الحجرة السفلية بعدما استنشقت زوجته ما يكفي من الهواء النقي، بينما تجمَّع الشباب والفتيات حول العروسان بالأعلى وراحوا يغنون ويصفقون ويرقصون. وظل العاملون على المركب واقفين ينتظرون الفرج الذي لا بد وأنه قريب.

***

يبدو أن أحدهم قد قرر استغلال نيران موقد الغاز لصنع الشاي. بدا على وجه فاطمة قلق عارم أقرب للرعب وهي تنظر حولها، ثم رفعت عينيها إلى أعلى، حيث السقف الذي يفصلها عن مجلس ابنها وعروسه مع رفاقهما. أصوات الأقدام الراقصة تتزايد، الهمهمات الجانبية والأحاديث تتعالى. الكل ينتظر وهو موقن أن الأمر بسيط وسرعان ما سيعودون إلى البر.

لكن سهير لم تكن مُرتاحة، خاصة مع القلق الذي يخفيهأسامة في صدره. سألته همسًا وهي تنظر إلى أكواب الشاي مُتعلقةً بها كي تخرج من دوامة نوبة الهلع:

- أسامة، هناك شيء تُخفيه عني، لاحظت تعبيرات وجهك منذ اشتعل الموقد، وتعطلت السيارة، والآن أراك تحاول إخفاء قلقك عني أكثر.

- الأمر أسخف من أن يُحكى، كل ما هنالك أنني أحاول الوصول لتفسير منطقي لا أكثر.

- لقد اعتدنا أن نحكي لبعضنا أسخف الأمور يا أسامة. ماذا

حدث؟

- أعتقد أنني سأزيد همك.

- أنا بخير. احكِ..

- الأمر أنني.. أتذكرين ما بدأ في الحدوث منذ وصول عصام سن البلوغ. عندما وجدت أمه في حقيبته صورة فتاة في مثل سنه؟ عندما واجهته وعلا صوتها عليه، انهار فوقها محتوى الخزانة التي كانت تقف أمامها. حاولت أن تُقنع نفسها أنها مصادفة، لكن ما نوعية المصادفة التي تفتح ضلفات الخزانة الست في آن واحد وتُخرج محتوياتها المُرتبة بعناية؟

- أذكر أنك حكيت لي هذا الموضوع في مرة، وحكيت لي شك أمه في أنه..

- الأمر لم ينتهِ عند هذه الحدود..

كانت أصوات الرقص أعلاهم قد هدأت قليلًا، واستطاعت سهير تَصوُّر أن الفقرة التالية هي فقرة رقصة العريس مع عروسه. وبالفعل سمعت حفيف أقدامهما مع أصوات أصدقائهم يغنون.

عندي قمر بسهر معاه.. عندي ميعاد وحبيبي لغاه.. عندي حضن يساع

الكون.. ريقي نشف والحب رواه..

اختيار غريب، لكن حالة الشجن والخوف والترقُّب أعجبتها. نظرت إلى أسامة الذي كان يرمق فاطمة بجانب عينه في

ارتياب. سألته سهير:

- احك لي يا أسامة. ماذا حدث؟

- ليس لدي إجابة عن سؤالك، فلا أعرف حقًا ماهية ما حدث وقد شاهدت بعضه بعيني. لكنني سأحكي علّني أجد لديك إجابة..

هتفت فاطمة وابتسامة ماكرة على شفتيها:

- سأروي فضولك يا سهير.. وسأحكي أنا.

وأجمل ما عندي إيمان بالله، ونقول يا رب تكون بالعون..

هل ستساعدك الحكايات يا سهير على تخطي ذعرك؟ أجل.. أي تشتيت سيساعدني.. كلها دقائق وتصل النجدة. هذا نهر ضيق وليس محيطًا بعد كل شيء..

أجمل ما عندي إيمان بالله...

***



فبراير ٢٠٠١- دسوق

كان إسماعيل الصاوي قد توفي منذ عامٍ تاركًا أرملة ومُراهقًا وحيدًا في عمر الرابعة عشر. من قبلها عانى إسماعيل ورمًا خبيثًا انتشر في جسده بعد أن دمَّر رئتيه، وظل يصارع الموت ثلاثة أعوام، وكانت هذه هي الفترة التي بدأ أسامة في الدخول إلى حياة أسرة أخيه وتحمُّل مسؤولياته تجاههم تدريجيًا. وبُعيد الوفاة بدأت تلك الأحداث الغريبة في غزو حياة أرملته وابنها..

بدأ الأمر باتصال هاتفي ليليٍ من فاطمة، قام أسامة على إثره فِزعًا من نومه، وهو رجل اعتاد النوم مُبكرًا طيلة حياته. كانت سهير مستيقظة كعادتها كبومة ليلية، فحاول أسامة خفض صوته أثناء الحديث كي لا يُثير غيرة زوجته بعد اقتراحات عدد من أفراد العائلة زواجه من أرملة أخيه. لم تكن سهير تغار بسهولة، لكن حاستها النسوية أكدت لها أن فاطمة ترغب في هذه الزيجة، بل وتستكثر عليها زوجًا حيًا.

سأل أسامة همسًا عبر الهاتف:

- خير يا أم عصام؟ صوتك غير طبيعي؟

- أنجدني يا أخي.. عصام.. عصام..

- ما به؟

- يجب أن ترى بنفسك.. أنجدني.

كان يعرف أن في استطاعتها تلخيص الموقف له، على الأقل

حتى الصباح، لكنها تعمَّدت التشويق كي يأتيها مُسرعًا. المسافة بين طنطا ودسوق ليست قصيرة، لكنها دائمًا ما تلعب على وتر إحساسه بالمسؤولية.

هكذا، قرر أسامة ألا يذكر لسهير رحلته في الصباح التالي إلى دسوق، ولم تسأله هي كعادتها عن المُتصل الليلي، فقد كانت تثق به، والغيرة العمياء شيطان يتمكن منك إن دعوته.

حين وصل إلى منزل أخيه، وجد فاطمة جالسة تبكي، وعصام يجلس إلى جهاز كومبيوتر يلعب لَعبة إليكترونية ما، وقد كانت إجازة منتصف العام في بدايتها.

هرع إليه عصام وسلّم عليه في حفاوة بالغة تتناقض وتصرفاته اللامبالية مع أمه. عاد الشاب الصغير إلى لعبته، فذهبت أمه لإعداد الشاي ثم طلبت من عمه أن يرافقها إلى الشرفة. أجلسته على الكرسي الذي اعتاد أخوه أن يجلس عليه، وناولته طبقًا فيه قطع من الكيك ثم بدأت تحكي شاردة:

- عصام يا أبا رانيا..

- ما به؟ أراه بخير؟ ماذا يحدث بالله عليكِ؟

- يبدو بخير، لكنه ليس كذلك ولا أريده أن يعرف أنني حكيت لك.

- هذا صعب. لا بد وأنه يعرف سر مجيئي المفاجئ، وقد ارتاب بالتأكيد في حديثنا على انفراد. هلا حكيتِ؟

- حسنًا.. يبدو أننا نُعطلك عن بيتك وأولادك، لكن ليس لنا سواك.

تنهد أسامة ورسم ابتسامة على وجهه وقال قاصدًا معنى كل علمه:

- أنتما أيضًا عائلتي، أنتِ أختي وعصام ابني.

هزَّت رأسها وقالت وهي تحدق إلى كفيها:

- أعتقد أن عصام ممسوس.

- ممسوس؟ ولمَ هذا الاستنتاج المُتطرف؟

حكت له البداية، حين سقطت محتويات الخزانة فوقها بعد شجارها معه حول صورة الفتاة، ثم أردفت:

- يظل يحادثها طيلة الليل في الهاتف، وأنا أرفع السماعة الأخرى وأسمع حديثهما وشكواه من تسلطي وافتقاده لأبيه. في مرة كنت أسمعهما حين وجدت صرصارًا يطير مندفعًا نحو وجهي مباشرة، شهقت، ويبدو أن شهقتي وحركتي العنيفة نبَّهته إلى أنني أتنصت عليه لأنني حين وضعت السماعة على أذني وجدت أنني لا أسمع أي صوت، ظننت الهاتف تعطَّل من حركتي المباغتة، وظللت أضغط الأزرار بشكل عشوائي دون جدوى. تفحَّصت سلك السماعة، ثم أخيرًا وقعت عيناي على سلك الهاتف الموصول بالسلك الأصلي والمُثبت إليه بشريط لاصق عازل للكهرباء. كان السلك مقطوعًا.

- ربما انفصل من موضع التثبيت أثناء تفاديكِ للصرصار؟

- كلا.. كان ممزقًا على بعد نصف متر تقريبًا من موضع الشريط اللاصق، كأنما جذبه أحدهم من طرفيه حتى مزقه. ظننت أن فأرًا قد مضغه، لكن الغلاف البلاستيكي للسلك كان ممطوطًا لا

مقطوعًا.. هل تفهمني؟

- أفهمك. وتمزيق الغلاف البلاستيكي والسلك المعدني بداخله صعب للغاية ويحتاج إلى قوة كبيرة وجذب سريع. أكملي..

- بالضبط.. هذا ما فكَّرت فيه. مرة أخرى لم أجد لهذا تفسيرًا. منذ شهر تقريبًا توفيت الفتاة التي كان يحادثها.

- رحمها الله. أكانت مريضة؟

- كلا.. وجدوها مخنوقة في غرفتها وآثار أصابع بادية على رقبتها.

- مخنوقة؟ مراهقة صغيرة تُخنق في غرفتها؟ هل عرف أهلها بأمر علاقتها بعصام؟ أحيانًا ما يتطرف بعض المجرمين من الآباء والأمهات ويقتلون بناتهم حين يشكُّون في علاقتهن بشباب.

- لا أعرف إن كانوا قد علموا شيئًا عن علاقتها بعصام. أو ربما بغيرِه، لكنه هو من حكى لي بعدما عرف الخبر من المدرسة كان حزينًا لكن سرعان ما نسيها وعاد لطبيعته تمامًا كنت أظنه سيمُر بمرحلة من الاكتئاب أو العُزلة، لكنَّ أيًا من هذا لم يحدث.

- مرة أخرى، هذه هي طبيعة المراهقين وتقلباتهم. يحبون ويكرهون في اليوم عشرات المرات.

رشفت فاطمة من الشاي الذي كان قد برد، وقالت وهي ترفع حاجبها:

- وأنت وسهير؟ لقد أحببتها منذ كنتما طفلين لا مراهقين،ولم يتغير هذا الحب حتى.. حتى الآن على ما أعتقد.

تجاهلها أسامة وأمسك قطعة من الكيك وأخذ قضمة كبيرة منها، كان كيكًا مصنوعًا من دقيق الذرة صعب الابتلاع، فاتخذه ذريعة كي لا يرُد عليها. أشار إليها أن تُكمل وهو يشرب الشاي كي يدفع الكيك الخشن إلى معدته.

- المهم.. ظننت أنني ارتحت ولو مؤقتًا من همٍّ مراقبته وتفتيش حجرته والتنصت على مكالماته، لكنني بالأمس سمعت صوته في غرفته يئن ويغمغم. سقط قلبي إلى قدماي، أدرت مقبض باب حجرته لأرى ما يحدث، لكن الباب كان موصدًا. ظللت أدفعه وأقرعه لكن عصام لم يرُد عليَ. مرت دقائق فكرت فيها في الاستعانة بأحد الجيران لتهشيم الباب، لكني سمعت صوت عصام يسعل ثم يفتح الباب لي من الداخل. كان هو من أوصده بالمفتاح قبل نومه. هل ترى كيف تغير وصار يتعمَّد إخفاء كل شيء عني؟

- لكلٍ خصوصيات يا أم عصام، وابنك ما عاد صغيرًا.يجب أن تمنحيه بعض المساحة الشخصية، فيأتي هو ليحكي لك كل شيء بإرادته. ماذا حدث بعدها؟

- كان مُتعبًا مُصفر الوجه. سألته إن كان بخير، قال لي أنه كان نائمًا واستيقظ على قرعاتي على الباب. كدت أنصرف وأتركه ليكمل نومه على أن نتحدث في الصباح، لكنني لاحظت شيئًا فأفلتت مني صرخة. كان على بنطاله بقع من الدماء.

- أين كانت بالضبط؟

- من الأمام.. أسفل بطنه وعلى منطقة الفخذين بالكامل. دفعته إلى داخل حجرته وسألته عم يحدث. بدا لي أنه لا يفهم شيئًا، فقد تفاجأ بالدماء، ولا شعوريًا خلع سرواله لنفاجأ معًا

بالخدوش الطولية على فخذيه.

وضع أسامة كوب الشاي الذي لم يشرب منه سوى مرة واحدة، وقال في حنق واضح:

- لا أصدق كمية انتهاكات الخصوصية التي تحكينها. تُحاولين فتح بابه دون استئذان، تحاصرينه بأسئلة إجاباتها مُحرجة لأي مخلوق حي، ثم يعتاد هو على انعدام الخصوصية حتى يتخفف من ملابسه هكذا أمامك.

- أمامي؟ ألست أمه؟!

- بلى، لكنه شاب الآن يا أم عصام.

- وأنت تُمسك في تلك التفاصيل الخائبة ولا تهتم للخدوش على فخذيه؟!

- أنا أتمسَّك بالمُسببات لا النتائج. لا أؤمن بما تقولين بشكل مُطلَق حتى أقدمه على التفسيرات العلمية الواضحة كالشمس.

أنزلت حاجبًا ورفعت الآخر وهي تعقد ذراعيها وتسأل:

- وما التفسير الواضح كالشمس يا دكتور؟

- ابنك مراهق، يعاني ضغطًا نفسيًا ما، وغالبًا هو قدأحدث تلك الجروح لنفسه. دعيني أتكلم معه.

- وماذا عن الكدمات في ظهره؟ لقد رأيته بنفسي وأنا أفتش جسده بحثًا عن إصابات أخرى.

- تفتشين جسده؟! حسنًا.. دعيني أخرج قليلًا مع الولد.

احتقن وجه فاطمة وهي لا تدري كيف ستعترض على خروجهما

سويًا، لكنها في النهاية رضخت لطلب أسامة. بينما يُغير الشاب ملابسه، راح أسامة يتشاغل في مشاهدة اللعبة على شاشة الكومبيوتر، ثم انطفأ الجهاز كله فجأة.

بدا لأسامة أن التيار ربما انقطع لثانية ثم عاد. قالت فاطمة وهي تنظر إليه:

- لقد صار انطفاء الأجهزة الكهربية بلا سبب عادة يومية منذ.. لا عليك.

- منذ متى؟

- أنت لا تؤمن بالمس والجن، فلا عليك من استنتاجاتي الخائبة.

قالتها وشغَلت المذياع على إذاعة القرآن الكريم التي لم تُبث إلا لثوانٍ قبل أن يتحرك مؤشر ضبط الموجات أمام عيني أسامة إلى موجة لا تبث شيئًا على الإطلاق.

***

لم يلاحظ أسامة أن أحدًا حوله يسمع ما تحكيه فاطمة لسهير، إلا عندما قاطعهم رجل مُسن، هو ابن عم أسامة؛ الحاج محمد موسى.

- لقد شكت لي فاطمة وقتها أنك لا تصدقها ولا تُعيرها انتباهًا.

سرعان ما تدخلت سيدة أخرى من أقارب فاطمة وقالت:

- الجن مذكور في القرآن الكريم.

هتف رجل آخر من ركنٍ مُظلم:

- من أعراض الجن العاشق أن يُصاب المرء بالخدوش والكدمات وهو نائم.

شهقت والدة العروس وهي تتساءل:

- هل لعصام جنية عاشقة؟ يا ربي! كيف لم تخبروها؟ أم تُراها تعلم ولم تُخبرني؟!

اتسعت عينا سهير وقد اكتشفت فجأة أن عددًا من المجاورين لهم كانوا يتابعون حديثهم وهم يشربون الشاي، أما الشباب بالأعلى فكفُّوا عن الغناء وتعالت همهمات سمرهم وضحكاتهم. قال أسامة بهدوء:

- لماذا يقفز الجميع إلى استنتاج الجن هذا قبل أي استنتاج آخر؟ هل هي حيلة نفسية تُعفينا من تحمُّل مسؤولياتنا في التسبُّب في الأحداث؟

أجاب محمد موسى:

- عندما تكون الأحداث خارقة لقوانين الحياة المادية، فالتفسير الأقرب هو التفسير الماورائي الخارق.

- أختلف معك يا موسى، فالإنسان القديم كان يفسر الظواهر الطبيعية تفسيرات خوارقية لقلة عِلمه، والآن صرنا نعرف أن انفجار البراكين لا علاقة له بغضب رب النيران الوثني فولكانوس، وأن صدى الصوت لا يصدر من امرأة مسختها المعبودة هيرا بقرة ولعنتها بلعنة ترديد آخر مقاطع الكلمات.

- وظلت هناك أمور لا تخضع للعلوم التطبيقية يا أسامة. لطالما كنت تُنكر ما تراه عيناك ويخفى على عقلك.

- الحواس خادعة يا موسى.

كان حديث الرجلين ودودًا رغم خلافهما، مما شجَّع الآخرين على طرح المزيد من التساؤلات، لكن فاطمة هتفت أخيرًا من مجلسها:

- لماذا لا تحكي يا أبا رانيا أنت وتخبرهم بما توصلت إليه من الحديث مع عصام، ولنترك الحُكم لهم؟ فقط لا تنسَ ما حدث اليوم.. ضعه في الحُسبان.

نظر أسامة نحو سهير حانقًا؛ يبدو أن الجميع يعرفون بأمر ما كان يحدث مع عصام. كيف تسمح أمٌّ أن تفضح خصوصيات ابنها إلى هذا الحد؟ أمسكت سهير بكفه وابتسمت، نظرت نحو رجاء، فوجدتها تكتم غضبًا. سهير تشعر بالضيق لإخفاء أسامة عنها ذهابه إلى أرملة أخيه، أشعر بالنبض يدق في أذنيها، وأعرف أنها بارعة في كبت تلك المشاعر التي تراها تافهة.

في النهاية، لم يجد أسامة بُدًا من أن يُكمل حكايته.

***

فبراير ٢٠٠١- دسوق

خرج أسامة مع ابن أخيه وجلسا في مقهى نظيف قريب.

كان الشاب مُستعدًا للاستجواب، بل يكاد يتوق إليه.

- عمي.. لا أعرف ماذا يجري لي، هل يمكن أن تبيت معنا وترى بنفسك؟

- لن يكون هذا مُريحًا يا عصام، ولا يصح أن أبيت معكما، لكني

سأفهم إن حكيت لي. متى بدأ كل هذا؟

شبك عصام أصابعه وقال مُحدقًا إليهم:

- بعد وفاة والدي بشهور، أو عامٍ تقريبًا بدأت أمي في الاهتمام الزائد بي، ومرافقتي إلى كل مكان كأنني عُدت طفلًا لو ذهبت إلى صديقٍ، تظل تتصل بمنزله كل نصف ساعة تسألني متى أعود، إن نزلت للعب كرة القدم الرفاق في الملعب، أجدها تقف بعيدًا تراقبني ثم تُنكر بعد ذلك أنها خرجت على إثري.

- هل تفهم ما تمُر هي به بعد وفاة والدك؟ هل تفهم المسؤولية التي تُثقل كتفيها، وخوفها عليك؟

- أفهم.. لكن يجب أن أعيش كباقي الناس يا عمي. تصرفاتها تُسبب لي حرجًا كبيرًا. بل إن الأمر تطور إلى غيرة عجيبة خاصة بعدما.. اقتربت أكثر من زميلة لي في المدرسة؛ دعاء.

- لحظة، ما هي الأمور الغريبة التي كانت تحدث قبل علاقتك بدعاء؟

- لم ألاحظها وقتها طبعًا، لكنني الآن أتذكر عشرات التفاصيل الصغيرة؛ الطعام الذي لا أحبه يحترق على الموقد، الملابس الثقيلة التي تُلِح أمي علي في ارتدائها تُثقب بلا سبب، كُتب المواد التي أكرهها تضيع.. أمور كهذه.

هزَّ أسامة رأسه، فأكمل عصام مُحتضنًا كوب السحلب بين كفيه:

- ثم.. تعرفت على دعاء، واقتربنا من بعضنا كثيرًا. كنت وقتها أحبها وهي كذلك، اعتدنا الحديث في الهاتف بعدما ينام أهلنا،

تبادلنا الصور الفوتوغرافية والخطابات والهدايا حتى عرفت أمي بأمر علاقتنا -البريئة أقسم لك- وبدأت تتنصت عليَّ وتواجهني بما تجد في حقيبتي من أمور شخصية، وهنا بدأت الحوادث الغريبة تأخذ منحى أكثر شراسة، أكثر إيذاءً..

- مثل أن تسقط الملابس من الخزانة على رأس والدتك؟

- كلا.. مثل أن تموت دعاء مختنقة في بيتها.

طلب أسامة من عصام أن يحكي ما حدث قبل هذا بالتفصيل، فقال الشاب أنهما كانا يتحدثان عبر الهاتف في الليلة السابقة لوفاتها، وكانت دعاء تشكو من تعثرها المُستمر أثناء السير، بل إنها استيقظت من نوم العصر يومها وقد شعرت أن أحدهم قد ركلها، ورأت أثر الركلة على بطنها.

- وفي ليلة وفاتها، ظلت تبكي وتُحدثني عن عفريت أو جني يتبعها، فمكثت معها على الهاتف حتى نامت، وكانت يومها وحدها في البيت مع أختها الكبرى، بينما أبوها وأمها في نوبتهما في المستشفى، فهما طبيبان.

- ومن اكتشف وفاتها؟

- أختها. ذهبت توقظها لتذهب إلى المدرسة، فوجدتها...

- رحمها الله. أكمِل.

- حتى بدأ العفريت الذي يطاردها في مطاردتي شخصيًا، وما رأته أمي كان مجرد قشور سطحية لما يحدث معي ولا أحكيه..

***

حكى عصام لأسامة أنه عاد من المدرسة يوم أن عرف بوفاة

حبيبته الصغيرة، وكان يشعر بمشاعر مُختلطة غريبة، أولها إحساس المُباغتة الذي يشعر به كل من يشهد موتًا مفاجئًا، ثانيها شعور بالراحة كونه قد تخلّص من عبء الفرار من مراقبة أمه ولومها على علاقته بدعاء، ثالثها شعور بالذنب يكسح كل المشاعر الأخرى، تلومه نفسه وتجلده.. كيف نسيتها في لحظات؟ كيف لا تشعر بالحزن؟ كيف لا تموت وراءها؟ كيف..؟

دخل الحمام ليغتسل، حاولت أمه فتح الباب عليه كي تسأله عما سمعت من أمر وفاة زميلته لكنها وجدته موصدًا من الداخل. ظلت تسأله وتحاصره، بكى والماء ينهمر فوق رأسه، بكى لأنه لن يتحمل كل هذا الضغط فوق ما يفعله به إحساسه بالذنب، بكى لأنه ظل يقنع نفسه أن والدته تهتم لأمره وتحبه وعليه ألا يُغضبها، بكى خوفًا من عقاب الله على ما يشعر به تجاه والدته وتجاه دعاء.

فجأة لم يعُد يسمع صوتها، ناداها فلم ترُد.

لف جسده بالمنشفة الكبيرة وفتح الباب، كانت تقف أمامه ولا يسمعها، يحاول الاقتراب منها وتحاول الاقتراب منه ولا يستطيعان. ثمة حائل غير مرئي بينهما. مرت لحظات كأنها ساعات حتى انتهى كل شيء فجأة، فسقط كلاهما أرضًا وهو يحاول أن يصل إلى الآخر. جلسا يبكيان كلّ لأسبابه الخاصة ثم صار ما حدث كابوسًا بلا تفسير بالنسبة لهما وعليهما أن يتجاهلاه.

حكت فاطمة ما حدث للجميع، وشعر عصام بحرج بالغ إزاء هذا التصرف، مما دفعه لإخفاء ما حدث تاليًا عنها.

في الليلة التالية جاءته دعاء في الحلم، وقد تحفّظ عصام في

حكي التفاصيل، واستنتج أسامة ما دار بينهما في المنام قبل أن تتحول دعاء إلى كتلة رغوية تتبدَّل ملامحها إلى ملامح مختلفة في كل لحظة، وكلها ملامح لممثلات أو مطربات يفضلهن عصام. حين استيقظ ومسح وجهه بكفيه رآها، نفس الكتلة الرغوية تقف جوار الفراش، ثم تنساب تحت غطائه وهو مُتجمد لا يقدر على الحركة.

يصرخ فلا تسمعه أمه، يحاول الحركة لكنه مشلول.

ظل يُحدق إلى الساعة المُضيئة جواره.. دقيقة.. اثنان.. ثلاثة..

ثم عاد كل شيء إلى طبيعته.

في اليوم التالي، تشاجر مع زميل له بسبب معاكسته لجارة عصام المراهقة الجميلة، فشكرته الفتاة بعدها واحمَرَّ خديها خجلًا مما جعل الكهرباء تسري في جسد عصام، ثم تلاها إحساس الذنب المقيت. في الليل، كان جالسًا يُذاكر مع صديق له حين دفعه شيء ما من فوق كُرسيه، وثبَّته إلى الأرض. قام الصديق ليساعد عصام على النهوض، لكنه رأى أصابع تنطبع على رقبته، كأن يدًا خفية تخنقه.

راح الشاب الصغير يحرك يديه في الهواء أمام وجه عصام محاولًا الإمساك بمن يحاول قتل صديقه، وفي النهاية هرع يطلب المساعدة من أمه التي ما أن دخلت الحجرة حتى قام عصام أخيرًا وراح يشهق بصعوبة.

سألتهما عما حدث، فقال عصام أنه كان يأكل قطعة من اللادِن وانزلقت إلى قصبته الهوائية. قالها وهو ينظر إلى صديقه كي لا يُعارضه، قالها وتمنى لو استطاع أن يصرخ ويطلب المساعدة.

قال له صديقه بعدما انصرفت أمه:

- لماذا لم تقل لوالدتك ما حدث؟ كنت سأعزز ما تقول، فقد رأيت الكف الذي يخنقك بنفسي.

- لقد أخبرتك من قبل بردود أفعالها المُحرِجة. لن أحكي لها شيئًا.

- عصام، ماذا لو.. لو أن هناك شبحًا يُطاردك بعدما قتل دعاء؟

- وماذا فعل كلانا كي يطاردنا؟

زمَّ صديقه شفتيه مُفكِّرًا حينًا ثم قال:

- اسمع.. لا أريد أن أبدو لك مجنونًا، لكن أمي دائمًا ما تطلب مني وإخوتي ألا نُطيل النظر إلى المرآة، وألا ننام بملابس خفيفة، وتحرص على ألا يطول شعر أختي كثيرًا.. أتعرف ما السبب؟

- ما السبب؟

- الجن العاشق. أنا غير مؤمن بما تقول ولا أفعل أي مما تطلبه مني، لكن هذا مُعتقد شائع عند أغلب الأمهات والجدَّات. ماذا لو أن هناك جنية تحبك وقد قتلت دعاء غيرةً منها، والآن تُهددك بالقتل بعد أن دافعت عن نورهان اليوم.

هنا بدأ تفكير عصام يميل إلى هذا التفسير، مما أخافه أكثر وصار لا ينام إلا عصرًا فقط ويظل طيلة الليل يترقب حدوث كارثة تودي به.

مع الوقت، ومع حِرص عصام على ألا يُحادث أي فتاة أخرى، اختفت الظاهرة الغريبة، ولم تعُد إلا في الليلة التي اتصلت فيها

أمه بأسامة الصاوي مُستغيثة.

بدأت الليلة بحلم عن دعاء، وكانت طويلة الأظفار تخدش جسد عصام في تلذذ واضح، وكان هو يصرخ مكتوم الصوت، لكن ما حدث لم يتوقف عند حدود الأحلام، بل عبره إلى الواقع وانكشف أمر ما كان يخفيه عن أمه.

***

أخيرًا سألت رجاء فاطمة:

- أكنتِ على علم بأنه يخفي عنك كل هذا؟

قالت فاطمة وهي ترفع حاجبها الرفيع المُقوَّس:

- بالطبع.. الولد كان في سن المراهقة ولا أريده أن يتورطفي مشكلة دون أن أعلم سمعت ما دار بينه وبين صديقه عن نورهان تلك، وقد عزمت أن أحذر عصام من التورط في الدفاع عن أولئك الفتيات، فلا أحد يعلم ما وراءهن أو وراء من يضايقهن، لكن ما حدث قد ردَعه من تلقاء نفسه. لكني بالطبع لم أقف مكتوفة الأيدي، فقد لجأت لشيخ معروف عندنا، وقد جاءت نصائحه بفائدة عظيمة حتى...

قال أسامة شاردًا:

- حتى اليوم؟

- أجل.. لقد عاد كل شيء اليوم.

همهم الجالسون، وسأل محمد موسى:

- هل يمكن أن يكون تعطُّل الباخرة والهواتف المحمولة بفعل

تلك الجنية العاشقة؟

أجاب أسامة مانعًا المزيد من الخوض في هذه السيرة:

- وهل للجن أن يفسدوا المُحركات ويُعطلوا الهواتف المحمولة؟ كل ما مرَّ بعصام مجرد ضغط نفسي مع شعور متزايد بالذنب تجاه الفتاة التي كان يحبها، وما بقي من تفاصيل خارقة لا دليل عليه ولا يمكن التأكد من صدق انتمائه لعالم الخوارق. دعاء ماتت، ما الدليل على صدق موضوع أثر الأصابع على رقبتها؟ لا يوجد دليل. عصام رأى كوابيس جراء الضغط النفسي عليه بسبب تصرفات أمه وبسبب سن البلوغ، ما الدليل على أن تلك الكوابيس لم تكن كذلك؟ لا يوجد دليل أثر الأصابع أو الكف الذي رآه صديق عصام على رقبته، لم يره أحد غيره وربما توهَّمه مُتأثرًا بقصة موت دعاء ربما اختنق عصام حقًّا بشيء كان يشربه أو يأكله.

رمشت سهير وخلعت عويناتها وتشاغلت في مسحها. كانت تعرف أن تفسيرات أسامة ممكنة، لكنها ليست قاطعة. من خلال من قرأت وسمعت فهي تعرف أن هناك ما هو أكثر من تفسيرات علم النفس. كذلك كانت تعلم أن حِدَّة تفسيرات زوجها وراءها غيظ مكبوت من فاطمة التي لم تُنزل حاجبها الرفيع المرفوع ولم تتخلَّ عن ابتسامتها الساخرة المقيتة. لقد حوَّلت دفة الليلة إلى نفسها، وسلطت الأضواء عليها.

أخيرًا قالت فاطمة:

- شكرًا يا أبا رانيا على محاضرتك، لكننا لسنا طلبة في الجامعة. لو كان علم النفس ينفع لنَفع ابنتك التي عادت إليك مُطلّقة بعد

عامٍ واحد من الزواج.

قامت رجاء مُتكئة على عصاها وفتحت فمها مُعترضة، حين سمعوا صوتًا من أعلى يهتف:

- هناك مركب على مقربة..

ثم بدأ الشباب في النداء المُتحمس على قائد المركب وكأنهم ضائعون في عرض المحيط لا في نهر ضيق.

***

وقف أسامة ومحمد موسى مع جمع من الرجال وبعض العاملين على الباخرة ينظرون إلى القارب الصغير العاجز عن الاقتراب منهم لسبب مجهول.

صاح صاحب القارب بعد أن أنهى دورة كاملة حول الباخرة وفشل في الاقتراب أكثر من مسافة عشرين مترًا:

- ماذا يحدث عندكم؟

هتف أحد العاملين في الباخرة:

- الهواتف معطلة وكذا المحركات. هلا أتيت لنا بنجدة؟

- سأعود إلى البر وأرى ما يمكن أن أفعله.

جاءت سهير من خلف أسامة وأمسكت ذراعه. نظر إليها باسمًا وقال:

- سيعود لنا بالنجدة. قاربه صغير لم يستطع مساعدتنا.

- أسامة، لقد رأيت كل شيء. الرجل لا يستطيع الاقتراب منا.

- بالتأكيد بسبب صغر حجم قاربه، أو بسبب أي شيء يتعلق بالملاحة في الأنهار.

- لا يمكن تعديل معطيات المُعادلة بناء على حل خاطئ يا أسامة. ثمة شيء يحدث وهو لا يظهر في كاميرتي.

- أرأيتِ؟ طالما لا يظهر في كاميرتك، فهو ليس أمرًا خارقًا.

أمسك كفها وجذبها نحو المقاعد الخشبية المُثبتة على سطح الباخرة على امتداد سورها الحديدي. كان عصام جالسًا وحده

وعروسه وسط صديقاتها تنظر إليه في حزن ممزوج بالغضب. سرعان ما ظهرت فاطمة صاعدةً من الحجرة السفلية، واندفعت تجلس جوار ابنها وتحيطه بذراعها.

- عصام حبيبي، إن كنت لا تشعر بالراحة تجاه هذه الزيجة فنحن ما زلنا على البر.

صاح أسامة:

- أي بر؟ هذا عرسهما يا فاطمة إن كنت لم تلاحظي، وهي زوجته شرعًا وقانونًا. هل جُننتِ؟

- أن يُصلح الوضع الآن، أفضل من أن يُطلقها لاحقًا، وأنت تعرف جيدًا ...

لم تسمع سهير ما قيل في شجارهما، فقد كانت تُحدق إلى عتمة ماء النيل، وتتذكر أول رحلة نهرية مع أبيها وأختها. كان هناك رجل يصنع الشاي للعمال والموظفين في شارعها، وكان يغلي الماء في صندوق من الصفيح ويصبه في أكواب يعلو ماءها طبقة زيتية ربما كانت من تلوثٍ بالماء نفسه أو من الوعاء الصفيحي. كان هذا الرجل يفعل أغرب شيء رأته في حياتها كطفلة في العاشرة؛ كان يقرأ للناس طالعهم من الأشكال العشوائية الزيتية على سطح الشاي.

بعدها، وأثناء الرحلة النيلية، لاحظت أن هناك طبقة زيتية على ماء النيل، فقررت أن تداعب أختها بقرائتها لها، لكن سرعان ما صمتت سهير الطفلة وهي تحدق إلى الأشكال التي تراها؛ كانت تشبه طيورًا مقلوبة تطير، ثم رأت ما بدا كطائر أسود ضخم يندفع من الماء نحوها، فصرخت وسقطت في النيل لنصف دقيقة قبل أن ينقذها ابيها .

نصف دقيقة انعدم فيها الشعور بالتواجد في هذا العالم، لا صوت، لا ضوء، لا جاذبية..

ظلت شهورًا بعدها لا تستطيع النظر إلى أي ماء عميق، ومع مرور الأعوام خفتت الذكرى وظل الرعب غير المُبرر من حلكة وصمت النهر العتيق.

ترنّحت سهير مُستندة إلى السور، ثم تمالكت نفسها وأولت النيل ظهرها وأغمضت عينيها.

ماذا يحدث.. لماذا لا يستطيع القارب الاقتراب منا؟

ما هذا الصوت؟ صراخ؟

التفتت سهير إلى أسامة وعصام فوجدت الشاب ملقى أرضًا وأمه تصرخ، بينما عروسه تجلس جوراه وتوسّد رأسه فخذها. رغم الظلام، إلا أن سهير وكل من كان حول الشاب رأوا أثر الأصابع التي تضغط على حنجرته وتغوص في لحمه.

وعادت الأصوات تخفت في أذني سهير مرة أخرى ثم فقدت الوعي.

***

- ٤ -

فتحت سهير عينيها لتجد نفسها جالسة في الحجرة السفلية، وقد اجتمع كل الحضور فيها حول موقد الغاز. دارت بعينيها لترى الوجوه المشوَّشة -فقد كانت لا ترتدي عويناتها الطبية- وكان الجميع بخير، وعصام يجلس بين أمه وعروسه مُتهدِّل الكتفين .. رفعت رأسها عن كتف أسامة وسألته:

- ماذا حدث؟

- كل شيء على ما يرام. يبدو أنك فقدت وعيك. دوار البحر؟

- كلا.. الموضوع القديم إياه..

هزَّ أسامة رأسه مُتفهمًا وضمَّها إليه أكثر. انتبهت سهير إلى أن محمد موسى كان يحكي شيئًا ويقول:

- كانت هذه القصة في الخمسينات تقريبًا، هذا الطبيب هو خال صديق طفولتي رحمه الله، أي أن ما حدث قد حدث بالفعل.

سأل أحد الشباب المُتربعين على الأرض:

- وكان خال صديقك يا حاج قد عاد لتوه من إنجلترا؟ أي أن أوَّل تعيينٍ له كان في قرية نائية كما تحكي؟

- كلا، لقد عمل فترة وجيزة في الإسكندرية، ثُمَّ قرر أن يبدأ حياته العملية بعيدًا عن تعيينات الحكومة، فانتقل إلى تلك القرية التي نسيت اسمها.. ربما كانت كوم حمَّاد أو اسم قريب من هذا. لكن حكاية نِدا حقيقية تمامًا، ونعرف جميعًا أنها كانت جنية تعشقه.. وللعشق مذاهب..

الفصل الثالث

- ١ -

كوم حمَّاد - ١٩٥١

كان قاسم نشأت يعرف تأثير سيارته «ناش إمباسدور» على أهالي القرية الصغيرة. رغم مكوثة في المكان لأكثر من ستة أشهر، إلا أن الرؤوس لا زالت تدور لمرآها، ويتوقف الرجال عن حرث أراضيهم عند مرورها، ويتجمد الأطفال كتماثيل غريبة الوضعيات حتى تعبر.

الزمن يتوقف حتى تعبر الـ«ناش»، وحتى يعبر الطبيب الخواجة رغم مصريته وملامحه الشرقية وبشرته البرونزية اللامعة.

كان يعمل في منزله المكون من طابقين، وقد أحضر معه شابًا سَكندريًا للعمل لديه كـ«تمرجي»، فلم يكن يثق في أهل البلدة ولا يراهم بالنظافة الكافية للعناية بعيادته.

في أي يوم عادي، يأتيه عدد لا يزيد عن خمس حالات تقريبًا، أغلبها حالات طارئة مثل الحوادث اليومية البسيطة، أو حالات متدهورة للغاية يريد أهلها أن يفعلوا أي شيء يريح ضمائرهم تجاهها، أو هي مجرد رغبة في فعل شيء بعد فوات الأوان.

يدخل أحد المرضى، فيجلس على المقعد الوحيد أمام مكتب قاسم، أو يُحَمل إلى الفراش –ما لم يكن يقطُر دمًا أو ينز سوائل، فيوضع على حشية جلدية على الأرض- فيبدأ الحديث عن الأعراض أو الملابسات، بينما يكتب قاسم بالإنجليزية وهو يستنتج دومًا عكس ما يُقال؛ كل الأعراض التي بدأت منذ يوم

أو يومين قد بدأت منذ شهر أو شهرين على الأقل المريض المُتألم هو مريض موهوم، أما الذي لا يتألم فهو يخفي ألمه أي مريض يدَّعي أنه أول طبيب يكشف عليه هو مريض كاذب، وقد ترك جسده مرتعًا للهواة والدجالين قبل أن يُقرر تجريب الطبيب الخواجة كآخر حل.

يكتب الدواء، ويترك شوقي -التمرجي- يشرح للمرضى طريقة الاستخدام والمواعيد. لم يكن يطيق الحديث مع القرويين ولا يتحمَّل أسئلتهم التي يراها دومًا غبية لا تُحتمل.

لم يجرؤ أحد على سؤاله مُباشرة عن سبب إقامته في القرية طالما لا يطيق أيًا من تفاصيلها، لكن الثرثرات بدأت منذ أول يوم جاء فيه، ثم تعالت التفسيرات الواقعية والخيالية، ثم انشغل الناس في حيواتهم، فلم يعودوا يتذكرون وجوده إلا حين تعبر سيارته «الناش» فيتسائلون، لمَ لا نلجأ إليه في يوم علّنا نرى صورة أوضح عنه؟

نسيت بالطبع أن أقول لكم –أنا لاشين- أن نسبة لا بأس بها من مرضاه ليسوا مرضى على الإطلاق، بل جاءوا بدافع الفضول والتشكك والخوف على نسائهم من.. ممَ؟ لا أحد يعرف، لكن الرجال الأثرياء المُتعلمين الوسيمين لهم سحر خاص حتى ولو كانوا أوغادًا أو سَحرَة أو.. شياطين؟

أسألوني أنا ...

***

الجو حار، المروحة ذات الأربع ريشات تدور ببطء فتدفع البعوض تجاه قاسم لا بعيدًا عنه.

يُخرج زجاجة الويسكي من خزانة الأدوية فيجرع منها مُباشرة. صوت شوقي التمرجي يُثرثر مع بعض القرويين بالخارج يثير أعصابه.

يخرج من حجرة الكشف ويصعد الدرجات الخشبية إلى الطابق الثاني حيث مِهجعه. بعد دقائق سيرحل شوقي إلى حجرته الصغيرة في حديقة المنزل، أو سيخرج ليمضي الوقت مع خفير الشونة أو أي قروي آخر يعجبه.

كيف يندمج شاب من المدينة مع مجتمع ريفي مثل هذا؟ شوقي حُر فيما يفعل طالما يؤدي عمله، لكن قاسم كان يبغض أن تسير الحياة على غير قوانينه الخاصة.

كاد يغوص في النوم حين سمع صوت طرقات على باب المنزل. انتظر دقائق لعل الطارق ينصرف، لكنه كان مُصرًا، يتبع طرقاته بنداء على اسمه.

نداء أنثوي ذو لهجة راقية.. «دُكتُر قاسم» لا «يا ضَكتور» ولا «يا بيه».

ارتدى «الروب» الحريري فوق المنامة ونزل سريعًا، لا يمكن رفض طلب لسيدة ذات صوت رقيق راقٍ، على الأقل لا يمكن رفض طلباتها وهما بعد لم يتعرَّفا.

- بُنسوار..

قالتها وهي تُزيح خصلات شعرها المموج عن جبهتها وتُنزل قدمها الدقيقة في حذائها الأحمر عن درجة السلم.

- بُنسوار يا هانم.. خيرًا؟

- تعطلت سيارتي هنا، هل تعرف أحدًا يصلحها؟

خرج معها يُلقي نظرة على السيارة، لكن ظل تركيزهمُشتتًا بين الأعطال الميكانيكية والجمال البشري. طلب منها أن تعود معه إلى منزله وسوف يتصل بشوقي ليجد من يُصلح السيارة، وهي مهمة مستحيلة في القرية فلا شوقي لديه هاتف حيث يتسكع ولا هناك من يصلح سيارات في القرية من الأساس، فضلًا عن عدم وجود هاتف في بيت قاسم أصلًا.

دخلت المنزل وجلست على الأريكة الأسيوطية ثم نظرت نحوه، كان واقفًا عند الباب يكاد يُغلقه، وحين لم يجد منها ممانعة، أوصده وسار نحوها باسمًا يعرض عليها واجب الضيافة:

- أتشربين شايًا؟ أم.. تُفضلين الويسكي أو الكونياك؟

- لا شيء.. «ميرسي بوكو»..

تظاهر بالاتصال بشوقي من حجرة الكشف، ثم عاد يجالسها. اسمها نِدا، وأكدت أنه ليس «ندى» ولا «نداء». لدى عائلتها عزبة في مكان قريب وقد اتصل بها أحد الخدم لتأتي فورًا بسبب مشكلة هناك لم تذكُرها. قررت أن تختصر الطريق مرورًا بكوم حمَّاد لكن يبدو أن سيارتها قد مرَّت فوق شيء ما من بعدها تعطلت.

لو كنت مكانه -كرجل وكشيطان على حدٍ سواء- كنت سأسألها كيف عرفت اسمي ووظيفتي ونادتني بهما، ولماذا لم تجد رجلًا يسافر معها أو بدلًا عنها؟ وما نوعية المشكلة التي لن تنتظر حتى الصباح؟

لكنني لست مكانه، ولست مثله. قاسم يثق في نفسه ثقة عمياء، ويؤمن أن في مقدورة أن يلوي قوانين العالم لتدور من حوله فقط، ولأجله.

ماذا لو كانت لِصة أو نصابة؟ هو قادر على النجاة منها بالعقل أو بالعضلات. ما الاحتمالات المنطقية الأخرى؟ لا شيء..

استنتج من حديثها وتصرفاتها أنها مُتحررة، لا تخشى اختلاء رجل بها، ولا تمانعه. يمكننا أن نقول أنهما أمضيا الساعات المُتبقية من الليل كالتالي: حاول هو إيقاعها في براثنه بحرص وتَمَكُّن، ثم لانت له، فشربت معه كأسين، ثم وجد نفسه يتوسد كتفها ويحكي لها ما ظنَّ أنه قد تجاوزه من ذكرياته.

لم يمسَّها -كما يذكُر فقد أنهى زجاجة كونياك كاملة ولم يعد يعرف ما حدث في باقي الليلة- وفي الصباح خرج معها إلى حيث سيارتها وهو يعاني صُداع الثمالة، بينما كانت هي منتعشة كأنما استيقظت من نوم ثماني ساعات متواصلة. ربط سيارتها إلى سيارته، ثم ركبت معه إلى المركز القريب.

عرض عليها قاسم أن يوصلها إلى عزبتها ريثما تُصلِح سيارتها، لكنها رفضت.

قالت له قبل أنت تنطلق:

- شكرا لك. أنت رجل «تري چانتي» حقًا.

- شكرًا لكِ أنتِ.

- علامَ؟

- على الليلة التي لن أنساها.

ابتسمت، وتمنى قاسم لو يطلب منها رقم هاتفها، لكنه كان يلعب بقوانينه، ويعرف أنها تتوق إلى أن تسمع منه هذا الطلب. ستعود.. كان يعرف أنها ستعود.

***

لقاسم سُمعة سرية تختلف عن كونه الطبيب الخواجة؛كان الطبيب الذي يستر على اللاتي حملن سفاحًا، ولم يكن ما يفعل سترًا بالمعنى المعروف.

ولشوقي هواية سرية لا يبدو أن لها علاقة بعمله كـ«تمرجي»، وهوايته التدخل في حياة الآخرين بموجب الثقة بينه وبينهم، وجمع الأسرار والشائعات لتسليته الخاصة من جهة، ولتسلية قاسم ونيل رضاه.

لم يكن قاسم يفعل ذلك طمعًا في مال، فهو ثري كفاية، ولا طمعًا في النساء، فهو يتقزز من القرويات لا سيما العاهرات منهن. الإجهاض بالنسبة له كالقيء بالنسبة للمصاب بالتخمة، مُقزز ومريح.

منظر الدماء، الأجنة الممزقة، البكاء، والصراخ، الشتائم التي ينهال بها على رؤوس تلك البائسات.. قيء.. تقزز.. راحة.

بعد أن عاد من توصيل ندا، وجد شوقي يُنظف الصالة وقد

أخرج البُسط إلى الشرفة وأزاح الأثاث جانبًا. توجه قاسم إلى حجرة الكشف الخاصة به إلى يسار المدخل، لمح قطعة من بلاط الأرضية ترتفع عما يحيطها.

سار نحوها ودفعها بقدمه فانزاحت لتكشف عن الرمل تحتها. ضيق عينيه ومال ينظر إلى الشيء البادي، ثم أخرج قلمه من جيب قميصه وأخرج به لفافة من قماش الحرير.. حرير أصلي.

فتحها فتراجع مُفاجئةً، وسقطت بما فيها من يده، وكانت تحوي حبلًا سُريًا.

دسَّ اللفافة والحبل السري في جيب سرواله ثم نادى على شوقي ، فجاءه يلهث ممسكًا بمضرب تنظيف البسط.

- متى آخر مرة رفعت فيها بساط الصالة؟

- الجمعة الماضية، مثل اليوم.

- وهل لاحظت أي كسر في البلاط تحتها؟

- كلا.. لقد نظفت المكان كله بالـ«الخيشة» والفنيك وكان البلاط سليمًا.

أشار قاسم إلى الكسر في الأرضية، فرفع شوقي حاجبيه في تعجُّب حقيقي. أمره قاسم أن يصلح الكسر ثم دخل إلى حجرة الكشف. وضع الحبل السري على وريقة أمامه، وعرف على الفور أنه حبل سري لجنين مُجهض في شهور حملٍ مُتأخرة، لا لمولود طبيعي.

لا يعرف أحد أمر ما يفعل سواه وشوقي ومن يعمل في مهنة البغي، ولا يقدر أحد على دفن جزء من جنين في صالة منزله إلا

شوقي، فلماذا قد يفعل ذلك؟

كان الأخير قد اعتاد على حرق الأجنة وإلقاء البقايا في الريَّاح، فكيف جاء هذا الحبل السري إلى هنا، والأهم لأي غرض؟

***

بعد ثلاثة أشهر، وفي مساء يوم خريفي دافئ، صعد قاسم إلى غرفة نومه بعد كأسين من الكونياك. غرفته تُطل على حديقة صغيرة تحيط بمدخل المنزل وتضم حجرة شوقي.

قبل أن يغيب في النوم، سمع صوتًا كبكاء رضيع يأتي من الأسفل، جلس في فراشه يُنصِت، ثم أطل من النافذة ينادي على شوقي، لكنه لم يكن موجودًا.

ارتدى الروب الخفيف وانتعل الخُفين ونزل متبعًا الصوت الذي كان يصدر من خلف باب المنزل.

كان مصدر الصوت رضيعًا ملفوفًا في ملاءة ثم في طبقة من الحرير الأسود. تلفَّت حوله فلم يرَ أحدًا. مال يحمل الرضيع، لكن ما أن لفَّ كفيه حوله ورفعه بضعة سنتيمترات، حتى تحلل الجسد الصغير وتساقطت منه أعضاؤه ثم تبخرت ولم يبق منه في اللفافة إلا حبل سري.

ألقى قاسم الأقمشة بعيدًا وراح يمسح كفيه، ثم هرع إلى حجرة الكشف يصُب عليهما المطهرات وهو يلهث فزعًا.

الكونياك مغشوش، وهذه هلاوس.. لا يوجد تفسير آخر.

ما أن خرج من حجرته لغلق الباب، شهق وتجمَّد إذ رأى نِدا تعبر باب البيت المفتوح وتتلفَّت حولها وهي تخلع قُفازيها الأنيقين.

حين أبصرته ابتسمت وقالت:

- بونسوار.. آسفة على التطفل يا دكتور. لقد كان الباب مفتوحًا.

ابتسم ودعاها إلى الجلوس، وقبل أن يغلق باب المنزل نظر خارجًا، فوجد اللفافة على الأرض وسط الحشائش غير المُعتنى بها وقد أخفاها الظلام.

- ما بك؟ هل أنت بخير؟

- أنا بخير. أعتقد أنني مصاب بالبرد.

- لقد جئت أطمئن عليك وأشكرك، و..

- و...؟

جلست نِدا ثم قالت وهي تنظر إليه بعينين مُتسعتين بريئين:

- دكتور.. أريد مساعدتك.. أنا حامل.

رفع قاسم حاجبيه وقد استنتج نوع المساعدة، افتعل السذاجة وقال:

- مبارك.. متى تزوجتِ؟

- لم أتزوج..

- أفهم..

جلس على طرف المنضدة الصغيرة أمامها ونظر إليها مُردفًا:

- أنت تعرفين أنني لا أجهض الحوامل.

- أنت حكيت لي أنك تركت الإسكندرية لأنك تورطت في

عمليات إجهاض، كان آخرها لفنانة شهيرة حملت من سياسي وقد فررت من مطاردة رجاله. أنت قلت لي هذا. لكن، أنا لم أقصد الإجهاض عمومًا.

- أنا حكيت لك كل هذا؟!

- وكيف عرفته أنا؟ عمومًا.. يبدو أنني قد أخطأت حين أتيتك.

قامت غاضبة، فأمسك بذراعها وسألها:

- اعذريني، يبدو أنني أفرطت في الشرب يومها.

- أفرطت في الشرب ونسيت ما قلت.. وما فعلت؟ أنت ذكي، وقد أدركتَ ما جئتك لأجله وزعمت موضوع النسيان هذا. دعني أرحل..

كان يعرف تصرفات النساء المُفاجئة و«القَفصَة» التيـ يُراد بها التدلل ولفت النظر. كانت تُعجبه، ولن يفقدها قبل أن يتذوقها على الأقل وهو واعٍ. أمسك كفيها ووقف أمامها يطلب منها أن تهدأ. رفع خصلة شعرها المموجة عن وجهها الأبيض فابتسمت في خجل.

أخيرًا جلست على الأريكة جواره، وأغمضت عينيها هامسة:

- هل يمكن أن نتزوج؟ فكر. أنا أطلب منك الزواج لأن هذا حقك. حقك أن تُربي ابنك أو ابنتك أو على الأقل أن تعلم بوجوده ستتساءل إن كان الجنين من صلبك، ربما ترفض عرضي. أعرف كل الاحتمالات وأقبلها الآن دورك، قل ماذا تريد أن نفعل؟

لن يقبل بالطبع الزواج من امرأة سلمت له نفسها، أو سلمتها

لشخص آخر وجاءت تُلصق فيه حملها. لكنها جميلة، راقية، تشبه النساء في إنجلترا، النساء اللاتي كُن يعتبرنه إفريقيًا عربيًا، إنسانًا من الدرجة الثانية وربما الثالثة. ماذا لو احتفظ بها أكثر دون مسؤوليات؟ ماذا لو....

- نِدا.. أريدك أن تظلي معي. لنتزوج، لكني لن أستطيع أن أقدمك إلى أختي وزوجها –وهما من تبقى من عائلتي- الآن. ليس وأنت ستضعين مولودنا بعد.. ستة أو سبعة أشهر.

أمسك برأسه كأنما يُفكر، فوضعت كفها الصغيرة على كتفه وقالت:

- سأدعك تُفكر.. لكن رجاء، لا تتجاهلني.. سأمر عليك بعد أسبوع. أتفقنا؟

- لمَ لا تتركين لي رقم هاتفك؟ سأود أن.. أطمئن عليكِ كل يوم.. بل كل ساعة.. أنتِ.. أم ابني.

قال عبارته الأخيرة بصوت هادئ مُتهدج وهو ينظر إلى عينيها. كان يعرف أنها ستصدقه. قالت له أنها ستمُر عليه، ولم تُعطه رقم هاتفها. وبعد أسبوع، جاءت مرة أخرى ليلًا. دخلت مباشرة إلى حجرة الكشف وجلست على الفراش وقالت:

- سأريحك يا قاسم من عناء التفكير. أنت شهم، والحقيقة فقد.. أظنني وقعت في حبك، ولا أريد أن أحملك ما لا تطيق. إن كنت تريد حقًا الزواج مني، فلنبدأ بصفحة جديدة لا تُسبب لك حرجًا. لنُجهض هذا الجنين ثم نتزوج وننجب غيره، وبهذا لا أتسبب لك في أية مشاكل.

كان هذا بالضبط ما كان يخطط لإقناعها به، لذا، كان عليه أن

يتظاهر بالصدمة ويرفض أربع مرات، ثم أخيرًا يحتويها بين ذراعيه ويقبّلها.

صرف شوقي هذه الليلة، واستنتج الأخير أن قاسم يريد المنزل وحده الليلة مع رفيقة جديدة.

بعدما شربا عِدة كؤوس، بدأت عملية الإجهاض الكئيبة.

رفضت ندا أن تتعاطي أي مُخدر، وقالت أنها تريد تذكُّر هذا الألم كي لا تُكرر ضعفها هذا مرة أخرى.

بدأ قاسم العمل وهو يخفي علامات الاستمتاع وينتظر صراخها أو انتحابها، لكنها كانت تضحك، تضحك وتتابع ما يخرجه من قطع مُدممة. تعجَّب كيف لحمل في شهوره الأولى أن يكون الجنين فيه واضح الأعضاء. يبدو أنها كانت تكذب وقد حملت قبل أن تقابله..

لا بأس..

دعها تكذب..

بعد ساعة تقريبًا، انتهى من عمله المقيت، وقبل أن يُدرك، كانت ندا قد قامت من مرقدها وراحت تمسح الدماء عن نفسها وترتدي فستانها. سألته وهي تتناول حقيبتها وقُفازيها من فوق المكتب:

- هل تريد الزواج مني الآن؟

- أكثر من أي وقت مضى..

لم يُدرك قاسم وقتها أنه كان صادقًا، كان قد اعتاد الكذب والخداع، لكنه يومها خدع نفسه. كان قد وقع في براثنها

وانقضى الأمر.

***

لم تشترط ندا عليه أن يخبر أخته وزوجها بأمر زواجه، بل لم تشترط مأذونًا يزوجهما، واكتفت بورقة عُرفية. لكن بطبيعة الحياة في البلدة، فقد أذاع شوقي خبر زواج الطبيب كما طلب منه الأخير، فأرسل إليه القرويون طعامًا وكعكًا، ووقف الأطفال يتلصصون على نوافذ المنزل علّهم يلمحون العروس التي فازت بالطبيب الخواجة، لكنهم لم يفلحوا في رؤية أي لمحة منها.

بعد يومين من زواجهما، سافر قاسم إلى المركز لجلب بعض مستلزمات العيادة التي يحب اختيارها بنفسه ولا يأتمن شوقي على شرائها، وحين عاد وجد حجرة الكشف مُواربة مُضاءة بالشموع. عقد حاجبيه وتحفّز لشجار مع أي من كان بالداخل، وإن استبعد أن يكون شوقي، فهو لا يملك مفتاحها فضلًا عن كونه في إجازة لمدة عشرة أيام بمناسبة زواج قاسم.

وجد نِدا ترتدي رداء نوم أبيض طويلًا فوقه روب من الحرير والدانتيل، تجلس إلى المكتب وقد وضعت أمامها منشفة بيضاء وأمسكت بالخيط الجراحي والإبرة المعقوفة تُخيط شيء أمامها.. شيء دامٍ؛ أشلاء..

اقترب قاسم أكثر وقد انفكّت عُقدة حاجبيه فارتفعا حتى كادا يمسّا شعره الأسود المُصفف بالفازلين. كانت تُخيط أشلاء جنينها إلى بعضها وهي تُدندن أغنية فرنسية.

جاء صوته مرتجفًا حين سألها:

- نِدا، ماذا تفعلين؟! رباه! من أين جئتِ بـ.. بهذا؟! لقد دفنته

بنفسي!

أجابت برقة وهي ترفع عينيها نحوه دون أن تُحرك رإسها:

- قاسم؟ أفزعتني! ثوانٍ وأكون معك.

- هيا قومي.. قومي..

جذبها من ذراعها برفق وقد استنتج أنها قد نبشت القبر المُرتجل في المخزن، وقد أصيبت بصدمة بعد إجهاضها. ربما ندمت، أو جُنَّت. ضمها إليه –فقد كان لم يسأمها بعد- وهو ينظر إلى الأشلاء على مكتبه خلفها.

أعادها إلى حجرة النوم، ثم نزل ليجد أن الأشلاء قد اختفت. نظر تحت المكتب، علّها انزلقت، لكنه كان موقنًا كذلك أنها لم تنزلق. ثمة آثار زحف على المنشفة، ثم أثر قدمين دقيقتين مُدممتين على الأرضية، تبعها ليجدها تختفي تدريجيًا في اتجاه المطبخ.

مسح شعره بكفه وعينيه تدوران في جنون. نادى على زوجته، فجاءته فوزًا يتطاير روبها الأبيض من خلفها وقد وضعت طبقة من أحمر الشفاة وفكّت شعرها لينسدل على كتفيها.

- حبيبي.. آتية لأحضِر لك العشاء.

- ندا.. أترين هذا؟

أشار إلى الآثار على الأرضية، فابتسمت وهرعت تنزل الدرجات الخشبية وتهتف:

- أراها طبعًا! آثار قدمي مراد.. الشقي! لا بد أنه جائع.

- مراد؟

- ما بك يا حبيبي؟ هيا أجلس وسأحضر لك العشاء.

أمسكت بكفه وأجلسته إلى المنضدة المُضاءة بالشموع، ثم هرعت نحو المطبخ. لم يستطع صبرًا، فقام وراءها ليجدها تحمل الشيء المُدمم المُشوَّه على ذراع، وتحمل ذراعها الأخرى صحفة مُغطاة. صرخ رغمًا عنه:

- ما هذا؟ انطقي!

- ماذا تقصد؟ هذا هو عشاؤك.

- أنت تتغابين! لا أقصد الطعام! كيف.. كيف يتحرك هذا... الـ..

وقبل أن يجد كلمات يُكمل بها سؤاله، مد الشيء الصغير كفيه نحوه وقال بصوتٍ مبحوح بلكنة فرنسية (بابًا). ولأول مرة في حياته يفقد قاسم الوعي.

***

المُشكلة هنا أن الشيء/الطفل كان يكبر كل يوم بما يوزاي ستة أشهر تقريبًا من عمر الأطفال العادية، بينما تتعامل ندا بشكل طبيعي للغاية معه، وتراعي قاسم كأي زوجة وفية مرض زوجها وراح يهلوس حتى نسي ضناه.

انعزل قاسم في حجرة الكشف لم يخرج منها لمدة خمسة أيام؛ صوت الطفل يرن في أرجاء المنزل طيلة النهار، وتمنعه أمه عن الدخول إليه لأن قاسم يصرخ كالمجانين حين يلمحه.

ظل يتساءل، هل يهرب؟ هل ينادي على أي من المارة لينجده؟ متى يعود شوقي؟! في الليل، وبعدما سمع صوت باب حجرة

نومه في الطابق العُلوي يُغلق، فتح باب حجرة الكشف وخرج يتحسس طريقه رافعًا شمعدانًا فضيًا ليرى ما حوله. كان يكره لمبات الجاز فهي تذكّره بعيشة الفلاحين. في الظلام فتح باب المنزل ونظر إلى الحديقة الصغيرة. كل شيء ذابل جاف، سيارته صدئة عجلاتها فارغة من الهواء. النسيم نفسه ذو رائحة بشعة كأنها قبر مفتوح.

بصوت راجف ردد اسم شوقي وهو يسير نحو حجرته. بابها الخشبي مخلوع والحشية بالداخل ممزقة أكلت حشوها الفئران.

خارج سور المنزل، رأى مراهقًا يترنح في سيره، وحين ضيق عينيه ليرى أفضل، فهم أنه لا يترنح، بل جسده غير مترابط، تنزلق مفاصله عن بعضها من وقت لآخر لكنه أبدًا لا يتفكك. نظر المراهق نحوه في حنان، فصرخ قاسم وسقط الشمعدان من يده. عاد إلى المنزل وأغلق بابه، ثم هرع إلى حجرة الكشف فاختبأ في ركن من أركانها يرتجف ويحضن رُكبتيه.

ماذا يحدث؟ يستحيل على عقل البشر إجابة هذا السؤال البسيط..

***

في الصباح، استجمع قاسم قوته وخرج إلى الصالة ليجد ندا تُطعم صغيرها، فيتساقط الطعام من فجوات صدره وبطنه، لكنها لا تأبه.

- ندا.. من أنتِ؟ ما أنت؟

- حبيبي.. أنا زوجتك، حبيبتك..

- بلا مراوغة.. ماذا يحدث؟ أريد إجابة قاطعة واضحة وإلا..

رفع مِبضعًا لامعًا مُهددًا إياها، وهو تهديد مُضحك، فمن قال أن في مقدوره قتلها إن لم يكن يعرف ما هي؟

نظرت ندا إلى الأرض وقد ساد الحزن ملامحها. همست بالفرنسية:

- أنا آسفة يا قاسم.. لكنني أحببتك.. عشقتك.. وظننت أنك ستحبني..

- أجيبي سؤالي..

وضعت ندا طفلها على الأريكة ووقفت أمام زوجها وهي تتحدث ناظرة إلى قدميها:

- أتعرف؟ أحببتك منذ رأيتك يا قاسم. أتعرف متى رأيتك؟ منذ عدت إلى مصر.. منذ لجأت إليها هاربًا، باحثًا عن الراحة. أتعرف يا قاسم لماذا اخترت هذه القرية بالذات لتختبئ فيها من مغبَّة هوايتك؟ لأنني ناديتك يا حبيبي..

لأول مرة يفكر قاسم في سر اختياره لهذا المكان بالذات كان مُطاردًا وأول ما خطر بباله اسم هذه البلدة ومكانها رغم أنه لم يزرها ولم يعرف عنها أي شيء قبل تلك اللحظة قال لنفسه أنه ربما عرف بشأنها من مكان ونسي، لكنه قصدها، وعلى الفور وجد فيها بيتًا مناسبًا. ظنه توفيقًا من الله، وظن أن الله قد يوفق مجرمًا إن كان وسيمًا مُتعلمًا لديه سيارة «ناش» تُدير الأعناق.

أردفت ندا:

- ناديتك وأنت سمعتني.. أتيت ورويت أرض القرية مرة أخرى بالدماء والصراخ واليأس يا حبيبي. كنت مُحقة بشأنك، فخسارة أن يضيع شخص مثلك في غياهب الخوف والفرار.

- ما أنتِ؟!

- نِدا.. حبيبتك.

- ما هذا العالم بالخارج؟ أجيبني!

- عالمنا يا حبيبي.. وهذا ابننا.. وهؤلاء هم قومنا، قومك.. صنيعة يدك.. أنت قاتلهم وباعثهم من الموت إلى عالم لا يكرههم فيه أحد ولا يعتبرهم عارًا لا بد من وأده. هم هنا أحياء، يكبرون و.. ويعرفونك.. يحبونك.. أنت منحتهم الخلود.

- أنا جننت.. أليس كذلك؟

- كلا يا حبيبي. أنت سيدنا وحبيبي.. ستعتاد كل شيء.. الرماد الذي ألقيته في الريّاح صنعت لك منه مملكة أنت ملكها..

***

عاد قاسم إلى حجرته وبدأ يكتب لأخته، تلك التي تبرأتمنه منذ.. منذ متى؟

لكنه الآن يعرف أنه يتخبط وسط الأمواج، لا يعرف إن كانت ستطول يداه حبلًا أو قطعة خشب يتمسّك بها، أو سيطوله فم حوت يلتقمه في ظلمات جوفه.

في الظلام خلف النافذة يرى عشرات الوجوه الشائهة تنظر إليه في محبة.. هؤلاء أولاده، صنيعة يده.

«أختي الوحيدة عائشة.. أحييك أفضل تحية، وأقبلك قبلة الاشتياق والندم على كل يوم آلمتك فيه أفعالي ونزواتي. أنا الآن بين يدي الله، لا أعرف هل فقدت عقلي أم غلبتني أفعالي فجاء غضب الله عليَّ من حيث لم أتصور.

سامحيني يا عائشة، فقد ظلمتك قبل سفري بضربي لك وشكي في سلوكك، فقد كان حِملي ثقيلًا وكنت أخاف أن ينفلت عيارك مثلما انفلت عيار من عرفتهن ولم أجد منهن شريفة ترفض غواياتي. كنت أخاف على سمعتي أكثر مما أخاف عليكِ، وقد ظلمتك أي ظلم حين زوجتك لعلي الدين وأنا أعلم أنه نسخة أسوأ عني، وقد انقلب هو عليَّ وأجبرك على التبرؤ مني.

سامحيني يا عائشة، ومسامحتك لي هي إطلاق سراحي من سجن كل ما عاشرتهن، وكل من وعدتهن فأخلفت وعدي، وكل من أوقعتهن في حبائلي وتركتهن ليقابلوا مصيرهن وحدهن. لكنهن رخيصات يا عائشة، رخيصات ولا أجد في نفسي الآن ندمًا على ما فعلت بهن، بل هذا ما جنته أيديهن. لكنني أعتذر لأن الله ابتلاني ولا أعرف كيف أخرج من ابتلائي إلا بالاعتذار.

عائشة، تعرفين أنني اختفيت من الإسكندرية وانقطعت اخباري، فقد كنت أعرف أنك تسألين عني وترسلين لي الخطابات كلما تسنَّت لك الفرصة. لقد هربت بعدما تطورت علاقتي بجميلة أبو الحسن. أجل، هي جميلة أبو الحسن التي كنتِ ترين صورها على أبواب التياتروهات والسينيمات. لم أكن أعرف أنها زوجة الجبالي باشا السياسي الشهير، وقد تزوجها عرفيًا وفي السر، ولم أكن أعرف أن الجنين الذي أجهضته هو ابني لا ابنه، لكنه كان يعرف.

بحث وعرف عن عمليات الإجهاض التي كنت أمارسهافتشفي غليلي، وعرف عن النساء اللاتي قتلتهن بتلك العمليات، ولست نادمًا يا عائشة. لست نادمًا فأنا أطهِّر العالم من بنات الحرام وأبنائهن.

هل كنت ترضين لي الحبس وضياع المستقبل؟ بالطبع لا،لهذا فررت، فررت وتعجبت أنه لم يلاحقني.. تعجبت من كل شيء وأعمتني ثقتي في نفسي..

واليوم أعرف..

لقد نادتني النداهة يا عائشة. تضحكين؟ لديكِ حق. أخوك الطبيب المُتعلم في أوروبا نادته النداهة، لكنها لم تكن كما حكوا لنا، ولا كما تخيل أي شخص.

النداهة تختار، وتنادي، ويصلك نداؤها ولو كنت في آخر الدنيا.

لقد تزوجت يا عائشة، تزوجت النداهة التي نادتني وأحبتني واختارتني لأكون سيد عالمها. لا أعرف كيف أشرح لك يا أختي..

سأكتب لكِ ما حدث وأنا يائس أن يصلك مكتوبي هذا، لكن إن وصلك أنجديني، فليس لي في عالمنا سواكِ....»

***

بعد عشرة أيام بالتمام والكمال، عاد شوقي من إجازته وظل يقرع باب منزل قاسم مرارًا بلا مُجيب. كانت سيارة الأخير واقفة في مكانها المعتاد. دخل الشاب حجرته ونام ساعتين، وحين استيقظ قرع الباب مرة أخرى ولم يرُد أحد.

دار حول المنزل وراح ينظر عبر نوافذ الطابق الأرضي، وكان أغلبها مُسدل الستائر، لكن ما لمحه من الصالة الكبيرة لم يُنبئه بأية تفاصيل عن غياب الطبيب وزوجته.

حين عاد مرة أخرى إلى حيث بدأ دورانه، كاد يتعثر في شمعدان فضي مُلقى وسط الحشائش الجافة. هنا بدأ القلق ينهش قلبه.

سأل القرويين وأخبروه أن الطبيب لم يظهر منذ قرابه أسبوع، وقد فسروا غيابه بأنه لا يزال في «شهر العسل».

لم يجد شوقي بُدًا من اقتحام نافذة المطبخ والقفز عبرها إلى الداخل تدخُّل الشرطة غير محمود في مثل حالته هو وطبيبه المشبوه يجب أن يطمئن هو أولًا إلى أنه لا يوجد ما يشير إلى أنشطتهم الشيطانية في المنزل قبل الابلاغ .

تنحنح ونادى وهو يسير ببطء عبر المطبخ متجهًا إلى الصالة:

- دكتور قاسم؟ يا أهل الدار.. يا دكتور؟ يا مدام قاسم؟

طاف بالطابق الأرضي ولم يجد أحدًا، والغريب أن باب المنزل كان موصدًا بالـ«كالون» من الداخل. فتش الطابق العلوي ثم نزل إلى حجرة الكشف فضرب بابها عدة مرات حتى انفتح

وسمع صوت المفتاح يسقط من فتحته.

كيف خرج قاسم من الحجرة إذًا؟

لفت نظره صفحة مطوية فوقها قلم الطبيب. كان خطابًا كتبه إلى أخته. جلس شوقي على طرف فراش الكشف وراح يقرأ.

***

أبلغ شوقي الشرطة عن اختفاء الطبيب، بعدما تأكد من أنه لا أثر لجرائمهم في أي مكان، واستدعت الشرطة أخته الوحيدة التي جاءت وزوجها وأقرَّت أنها لم تسمع عنه منذ اختفى من الإسكندرية، ولا بد وأنه قد هرب مرة أخرى لمكان آخر.

لم يرَ أحد زوجة قاسم المزعومة تلك، ولم تجد الشرطة أثرًا للطبيب.

لم يُسلم شوقي الخطاب للشرطة خوفًا من انكشاف تورطه في عمليات الإجهاض التي ذكرها الطبيب فيما كتب لأُخته، وبعد انتهاء التحقيقات، عاد إلى الإسكندرية لكن حياته لم تعد إلى سابق عهدها قط. كان يشعر دومًا بحاجة مُلحة إلى العودة إلى البلدة، وكلما فتح باب الحجرة التي يسكنها فوق سطح إحدى العمائر، يرى للحظات ما وصفه قاسم في خطابه؛ جثث ممزقة تجول في أرجاء السطح وتثرثر بصوت مبحوح، ثم تنظر إليه وتبتسم أو تمد إليه أياديها. يغلق الباب ويقف خلفه يلهث، وحين يفتحه مرة أخرى لا يجد سوى السطح النظيف وأصص النباتات وصينية القُلل على السور. يقول أهل القرية أن شوقي عاد إليهم بعد عدة أشهر، وسكن الحجرة في منزل قاسم المهجور. يقول أهل القرية أن المنزل تعفن وتآكل، وغزته

الفئران والثعابين، وأكل الصدأ سيارة قاسم في غضون أشهر قليلة.

يقول أهل القرية أن شوقي قد جُن، وقد عاش في الحجرة المتهدمة خمسًا وخمسين عامًا قبل أن يجدوه ميتًا، ولم يجدوا في حوزته سوى أوراق تخص الطبيب ودفتر أرقام هواتف، وخطاب قديم كتبه قاسم إلى أخته عائشة منذ أكثر من نصف قرن، يشكو إليها فيه ما فعلته به النداهة، وما فعله هو حتى يستحق عشقها..

***



الفصل الرابع

- ١ -

وضع أسامة كوب الشاي الساخن في يد محمد موسى وهو يقول:

- تفضَّل يا موسى. قصة مخيفة حقًا. وكيف عرف صديقك كل تلك التفاصيل؟

- أرسل أحدهم الخطاب إلى شقيقة قاسم بعدما وجدوا رقم هاتفها في أوراق الطبيب، وكانت هي قد توفيت وسكن في شقتها ابنها معتصم، صديقي الذي ذهب إلى القرية لتسلّم منزل خاله الذي زهدت فيه أمه منذ اختفاء أخيها. سمع تفاصيل هي أقرب للأساطير وسمع عما يهرف به شوقي عن يوم عاد إلى البيت فوجده مغلقًا من الداخل. لكن صديقي ظل مؤمنًا أن خاله لم يُجن، وأن كل ما حدث حقيقي، ويكفيه دليل المنزل المُتعفن المُقبض.

- لصديقك الحق في أن يؤمن بما يشاء، لكنني أرى التفسير واضحًا لا يحتمل الشك. قاسم نشأت جُن ببساطة. هو مجرم مختل يعاقر الخمر أحيانًا حتى تُذهب بعقله. لا بد وأنه قد هرب مرة أخرى بعدما تورط في أمر أكبر منه. لا أعرف لمَ عاد من أوروبا لكنني أتصور أنه قد عاد إلى مصر فارًا من جريمة اقترفها، ثم فر من الإسكندرية إلى القرية، وفر منها إلى مكانٍ آخر.

- ولماذا ترك سيارته ومنزله؟

- كي لا يشك أحد في أنه قد رحل إلى مكانٍ آخر فيبحثون

عنه.

- وتعفُّن المنزل؟

- وهل تعفُّن المنازل دليل على وجود النداهة بالذات؟!

ضحك أسامة وضحك محمد موسى. لم يكن أحدهما يدافع عن وجهة نظره، فلم تكن حكايات تلك الجلسة الإجبارية سوى تزجية للوقت، لا مناظرة علمية.

نظرت فتاة من صديقات العروس إلى ساعة يدها وقالت في توتر:

- هل سنتأخر أكثر؟ ستقتلني أمي إن تأخرت عن العاشرة.

قامت فتاة أخرى -المدعوة دينا- وأسرعت إلى خارج الحجرة، ثم سمعوا صوت قيء عنيف تبعه صوت بُكاء. قامت الفتيات خلفها ثم همست العروس:

- والدها لا يعرف أنها في حفل زفافنا، قالت له أنها في وردية عمل، لو انكشف الأمر فـ..

قاطعتها عفاف:

- بنات آخر الزمان.

أضافت فاطمة:

- الطيور على أشكالها تقع. لا أقصدك يا حبيبتي، لكن يبدو أن صديقاتك..

صاح أسامة مُقاطعًا:

- ما رأيك يا سهير فيما قيل عن قصة الطبيب الذي نادته

النداهة؟

وضعت سهير كفها لا شعوريًا فوق الكتاب في حقيبتها وقالت:

- أنت ذكرت تفسيرًا موضوعيًا لا أجد ما يخالفه في هذه القصة بالذات. لكن النداهة أو الكيان الذي ينادي الناس أو يغويهم حتى يقتلهم أو يُخفيهم موجود في ثقافات عديدة، عروس البحر هي شكل من أشكال تلك الكيانات، وقد لاحظت من خلال ما سمعت أو ذكرته المصادر أن تلك الكيانات دائمًا أنثوية تنادي الرجال وتغويهم. الخوف من النساء قديم للغاية. ما هذا المخلوق القادر على ولادة إنسان جديد من أحشائه؟ من هذا الخوف نشأت مذاهب تُشيطن النساء باعتبارهن ساحرات عشيقات للشيطان، ومذاهب أخرى تُقدسهن وتعتبر أرحامهن منبع الخير والحياة والخلود، حتى زعم البعض أن الكأس المُقدس هو رحم في النهاية.

قالت رجاء:

- لكن هذه الحكاية مختلفة عما سمعت في طفولتي،ربما لأن كل حكايات زوجة عمي الحاجة مريم عن النداهة كانت تنتهي عند اختفاء الذي نادته الجنية، ولم يخبرنا أحد سوى قاسم هذا عن أسباب اختيار النداهة لأشخاص بعينهم، وعما يحدث للـ«مندوهين» بعد اختفائهم. هل النداهة جنية عاشقة تنادي على الفسدة والمجرمين وتكافئهم بالعيش أبدًا في هذا العالم الجحيمي الذي وصفه الطبيب؟ عالم مخلوق من خطاياهم؟

أضافت سهير:

- أم أن هذا العالم الجحيمي يا رجاء هو عقاب الله لهم؟ ساعتها

سيكون قاسم حبيس لاوعيه الذي بنى كل تلك التفاصيل المُرعبة وأجبره على الهرب أو الانتحار مثلا فاختفى تاركًا كل شيء خلفه. دائمًا ما أسأل نفسي: هل يعيش الذين فقدوا عقولهم في نفس عالمنا؟ أم أنهم يرون ما وراء العالم، ويعيشون في متاهات بنتها عقولهم؟

صدح صوت رجل بالخارج يقول شيئًا، ثم أصوات رجال آخرين على مبعدة. قام الرجال خارجين من الغرفة، نظرت سهير إلى أسامة ثم إلى فاطمة التي فشلت في تكتيف ابنها جوارها، وقررت أن تخرج معه. قالت رجاء وهي ترفع عصاها:

- لن تتحمل رُكبتاي أكثر من هذا.. أنا جالسة هنا حتى يأتي الفرج.

صعدت سهير مع أسامة إلى السطح، لتجد مَركبًا أو باخرة صغيرة مثل التي يستقلونها تُبحر على بُعد عشرين مترًا منهم، وكانت عاجزة تمامًا عن الاقتراب أكثر.

«المسافة قريبة، سأسبح إليكم ومعي حبل..»

«لا نعرف ما الذي يمنعكم من الاقتراب، ربما تكون السباحة خطرة..»

«.. ماذا سيكون؟ عفريت؟! نحن لا نخشى إلا الله..»

«..اربط الحبل إلى خصرك يا طه، هذا أفضل..»

«.. خذ معك ما تُصلح به الـ...»

توالت النصائح والاقتراحات بين الرجال من الطرفين.

لفتت الفتاة الباكية -خوفًا من انكشاف كذبتها- انتباه سهير.

كانت في حالة يُرثى لها، تفتح حقيبتها وتهمس وهي تبكي، ثم تغلقها وترتجف في رعب.

سألتها أحداهن:

- ولمَ يرفض أبوكِ أن تحضري الزفاف؟

- لم أخبره من الأساس ولا أعرف إن كان سيرفض، لكنني خشيت أن يرفض وبهذا تضيع عليَّ فرصة أن أذهب دون علمه.

- كذبتِ لأنك تخشين رفضه؟!

- كذبت لأنني لم أرَ منه طيلة عمري سوى الرفض غير المُبرر. لم يعطني قط مُبررًا أو سببًا لرفض أي شيء أريده وقبول أي شيء لا يناسبني.

- لو تأخرنا أكثر سأجعل أبي يُحادثه.. لا تقلقي..

- ليس هذا فقط ما يُقلقني..

نظرت دينا نحو سهير، ثم نحو الرجال على سطح الباخرة الأخرى، ثم قامت تنظر إلى الرجل الذي يسبح في النيل نحوهم.

سبح الرجل مسافة مترين أو ثلاثة ثم توقّف وراح ينظر حوله في حيرة.

«.. ماذا يحدث عندك؟»

« لا أستطيع الاقتراب أكثر.. كأن هناك حاجزًا بيني وبينكم.. انظروا..»

رمى الرجل طرف الحبل نحو الشمندورة، وبدلًا من أن يطير في قوس قبل أن يسقط في الماء، ارتطم بحاجز غير مرئي من

فوره.

نظر أسامة حوله باحثًا عن أي شيء ثقيل، فوجد صحفة معدنية كبيرة، أخلاها من الأكواب ثم قذف بها نحو الباخرة الأخرى، فطارت عشرين مترًا، ثم سقطت فجأة في الماء.

لاحظت سهير أن دينا تحدق إلى حيث غاصت الصحفة، ثم تصرخ:

- ماذا تحاولون أن تُثبتوا؟ طنط فاطمة على حق، هذه أفعال الجن وأنا أعرفها جيدًا.. لا أحد يعرفها أكثر مني..

بكت، فطوَّقتها رفيقتها بذراعها. صعدت العروس من الحجرة بالأسفل وتساءلت بنظراتها عما يحدث، وتبعتها النسوة والأطفال.

انهارت دينا وتربَّعت على الأرض غير عابئة باتساخ فستانها. خلعت حذاءيها وألقتهما جوارها في يأس وقالت للعروس:

- أتذكرين يا نهلة ما حدث لي منذ عامين؟ لم ير أحدًا ما حدث سواكِ وقد كذبني الجميع.. حتى أنتِ..

سألت رفيقة لهن في فضول:

- ماذا حدث؟ لمَ لم تحكي لي؟

- وهل كنت ستصدقينني؟ لا أحد يصدقني.. لا أحد..

اقتربت سهير أكثر، لتسمع همسات دينا للرفيقات، ثم بعد إلحاح من الفتاة الفضولية، بدأت دينا تحكي، وأنساها الحكي -مؤقتًا- محبسهم.

دسوق- ٢٠٢٠

لو أنك فتحت مُحرك البحث على هاتف دينا المحمول، وفحصت آخر ما بحثت عنه عليه لوجدت قائمة تحوي:

- طريقة خاصة للزواج خلال سبع أيام بإذن الله.

- تجربتي مع سورة الفتح للزواج.

- للزواج السريع ٦ أعمال مُجربة.

- سورة للزواج في أسبوع.

- طريقة مُجربة لزواج البنت ممن تحبه.

- الإسقاط النجمي لجلب الحبيب.

وتمتد القائمة لتضم كافة ما يحوي كلمة زواج من أسحار وأعمال وأعشاب وآيات لم تكن دينا تريد الزواج إلا للهرب من والدها أعرف أن الرجل لم يكن قاسيًا لكنه كان عاجزًا عن التعبير عن عواطفه، لم يحتوِ ابنته مرة ولم ينظر إلى زوجته الراحلة وابنيه نظرة حُب، لذا، فكل ما تريده دينا من الزواج هو الحب والاهتمام ولا شيء آخر.

دينا ونهلة -عروس عصام- جارتان في نفس البناية وصديقتان منذ الطفولة، وأحيانًا ما كان يسمح والد دينا أن تبيت نهلة معها للمذاكرة، ولم يكن يسمح بالطبع بالعكس ولم يُبدِ لذلك سببًا.

انتهزت دينا فرصة امتحانات آخر العام ومبيت نهلة عندها وانتظرت نوم الجميع، ثم توضأت وجاءت بشمعة وورقة وملح،

وعود بخور.

رفعت نهلة عينيها عن الرسائل التي كانت تتبادلها مع عصام على هاتفها المحمول وسألتها:

- لا تقولي أنك ستجربين شيئًا آخر من هذا الجنون.

- نهلة، أنت مرتبطة بعصام ولا تشعري بم أعانيه. أنت تعملين حتى من قبل تخرجك وحياتك مليئة بالأصدقاء والأحداث. لا أحد يسأل عني وكل الفتيات يحصلن على هدايا أو رسائل صباحية أو.. أو حتى يتشاجرن مع أحبائهن ويتصالحن.. إلا أنا!

ارتدت دينا الإسدال وأشعلت البخور، وصلّت ركعتين -كما قرأت في الإرشادات على الإنترنت- بسورتي الضحى والكوثر، لكنها تجاهلت شرط أن يتم الطقس في مكان طاهر آخر غير مكان النوم. أين عساها تفعل ما تريد فعله إلا في حجرتها؟!

بعد الصلاة، تربعت على أريكة صغيرة وأمسكت بقطعة مسك أخذت منها بطرف عود ثقاب وراحت تكتب على قطعة ملابس منزلية خاصة بها ما تنقله من صفحة على الإنترنت.

قامت نهلة تقف خلفها لترى ما تفعل، ثم ضربت صدرها وصاحت:

- هل جُننت؟ أعمال؟ ظننتك ستصلين وتشعلين البخور لإبعاد العين وانتهى الأمر!

- هذا ليس عملًا أيتها المتخلفة. هذا توكيل.

- توكيل؟ ماذا تعني؟

- لا أعرف. هذا هو المكتوب. اصمتي الآن.

طوت دينا الرداء حول نفسه سبع مرات، وأمسكته بيُمناها ثم بدأت تقرأ عزيمة لن أذكر -أنا لاشين- نصفها الأول هنا، فلا أضمن أن تجربوها، ثم أنهت العزيمة بقولها:

- .. قال عفريت من الجن أنا آتيك بها قبل أن يرتد لك طرفك أجيبوا يا خُدام الأسماء بحق أبي سعيد.. بحق أبي سعيد.. وبحق الملك طارش الحاكم عليكم ..

الوحا الوحا.. العجل العجل.. الساعة الساعة..

قهقهت نهلة وارتمت على الفراش، نظرت إليها دينا عاقدة حاجبيها، فراحت الأولى تغني مُقلدة أحمد زكي في فيلم البيضة والحجر:

- الدربندوخ الدربندوخ.. كنا شباب وبقينا شيوخ.. روح يا تختوخ وتعالى يا شمروخ.. نططنا نططنا من بنها لطوخ!

- أنت متخلفة!

- والله أنتِ تُذكرينني بالدجالين في الأفلام الكوميدية.

خلطت دينا ماء ورد بملح، ثم كتبت طلسمًا -لن أذكره للأسباب السابق ذكرها- على ورقة بيضاء وأحرقتها بالشمعة، ثم مسحت بالرماد كفيها وقدميها، بعدها غسلتهما بماء الورد والملح.

- أنا لا أمزح يا دينا.. ما هذا؟

- وصفة فتح النصيب بالملح.

- وهذا سيجلب لك عريسًا؟

- وماذا سأخسر من التجربة؟

مسحت دينا يديها وكفيها بالمناديل، ثم أغلقت ضوء الحجرة وتمددت على الفراش، لا يمنعها من النوم سوى ضوء هاتف نهلة المحمول إذ تكمل دردشتها مع عصام.

***

بالطبع لم يظهر العريس المُنتظر، وبدأت الإجازة الصيفية وفراغها من دون الونيس الذي أرادته دينا.

تظل طيلة يومها بين المجموعات النسوية المختلفة على فيسبوك تقرأ عن الخلافات بين المخطوبين ورسائل الحب والمواقف الطريفة، وتشاهد صور المُرتبطين على إنستجرام وهداياهم.

كانت وحيدة، تتلقى دعوات الصديقات والزميلات لحضور حفلات الخطوبة أو الزفاف، فقد تخَّرجن جميعًا وذهبت كل منهن إلى الطريق الذي اختارته، سواء طريق الزواج أو العمل، لكن دينا لم يكن لها طريق سوى ذاك المسدود أمامها.

تنظر دينا ليلًا إلى الفراغ جوارها على الفراش وتهمس:

- أين أنت؟

فيغمر الفراغ ضوء الأباجورة جوارها. تقوم فزعة وتتلفت حولها؛ من أضاء الأباجورة؟! تُضيء جميع أنوار الحجرة مُتسعة العينين، ثم تخرج إلى أخيها الصغير الذي كان يشاهد فيلم رُعب على شاشة التلفاز. تجلس جواره وتتمنى لو استطاعت أن تلتصق به وتبكي، تتمنى لو يترك حجرته وهاتفه المحمول قليلًا

ويتحدث أو يخرج معها. بينهما فارق عشر سنوات، ويُعتبر طفلًا، لكنها كانت ستكتفي بهذا الاهتمام حتى يأتي النصيب في زوج.

ينظر مروان إليها بطرف عينه ويقول:

- لن تحبي هذا الفيلم.

- وما أدراك أنني لن أحبه؟

- فيلم رعب هو، وأراكِ لا تشاهدين سوى المسلسلات الكورية والتركية والهندية.

- لا أمانع في مشاهدة فيلم رعب. أنا لا أخاف. هل أصنع بعض الفيشار؟

- كلا، واسكتي قليلًا حتى أتابع الفيلم.

تنظر دينا إلى حجرتها المُضاءة خلفها، ثم تتكور في مقعدها وتشاهد الفيلم. البطلة تصعد إلى العلية ممسكة بكشاف، ترى شيئًا يزحف في الركن فينطفئ الضوء وتقل إضاءة المشهد، وترى دينا انعكاس باب حجرتها على الشاشة وتراه..

رجل يُطل من خلف الباب الموارب.

تلتفت سريعًا خلفها فلا تجد سوى طرف سترتها المُعلقة. كيف لم ترها من قبل حين التفتت منذ قليل؟

تحدق إلى الشاشة التي ينعكس فيها ضوء حجرتها، فرجة الباب تتقلص، هناك من يغلق الباب. تلتفت سريعًا خلفها فلا ترى طرف سترتها. الباب قد انغلق قليلًا بالفعل.

يصيح مروان وهو يضرب بكفه على صِدغه في سوقية ويمط

الحروف:

- دينا.. لا «تروِشِينا». ادخلي حجرتك أو نامي أو ادفني وجهك في شطيرة لكن لا تتلفتي هكذا كل دقيقتين.

تقوم دينا وتذهب إلى المطبخ، فتضع بعض الحليب ليسخن على النار كي تصنع مشروب شيكولاتة ساخنة كما تراهن يفعلن في الأفلام حين يشعرن بالتعاسة.

شيء يتحرك على رقبتها، دون تفكير ترفع شعرها أكثر إلى أعلى ثم تُكمل ما تفعل، وحين تكرر هذا الشعور مرة أخرى ظنتها حشرة، فتراجعت فزعة وهي تضرب رقبتها ثم تنظر إلى كفها فلا ترى شيئًا. مرة أخرى.. شيء يتحرك على رقبتها، فتسارع بوضع كفها عليه وأخيرًا تُمسك به. شيء بارد أسطواني، بل ثلاثة أشياء متوازية طرية من الخارج وبداخلها شيء مفصلي صلب..

أصابع!

تلتفت حولها ومرة أخرى لا ترى شيئًا.

الشوكولاتة الساخنة لا تنفع في هذه المواقف. هرعت تتصل بنهلة تطلب منها المجيء للمبيت معها. بعد ساعة تقريبًا وصلت صديقتها وقد أخبرت أمها أن دينا تعاني من نوبة فزع -وهي شكوى مُتكررة بالفعل منذ توفيت أمها- وتريد أن تمضي معها الوقت حتى تتحسن.

***

كلاشين، أعرف ما يمر بدينا بالضبط، وأعرف أنها المرحلة

الأولى من شيء أخطر مما تظن، وسهير كذلك ميَّزت تلك الأعراض، وذكَّرتها برسالة جاءتها من قبل على بريد البرنامج في موسمه الثاني عن فتاة يعشقها كيس بلاستيكي أسود، بل ويدافع عنها إلى حد القتل! لكنها ظلت صامتة وراحت تنظر إلى صفحة الماء المُعتمة وتقنع نفسها أنها لا ترى ذراعًا يمتد منها إلى أعلى.

تتنهد.. تنظر نحو أسامة فلا تراه من كثرة المُتحلقين حوله من الرجال، أما النساء فكُن يحيطن بدينا ونهلة في نصف دائرة يسمعن بأعين مُتسعة مُصدقة..

***

دينا لا تعرف كي تعيش بدون «كتالوج» تشغيل، وكان «كتالوجها» مكون من:

١- مجموعات من الصور على مواقع التواصل الاجتماعي تُوضح شكل السعادة والحب والحزن تُبين فتيات يرتدين بول أوفرات ذوات أكمام أطول من اللازم ويمسكن بأكواب الشكولاتة الساخنة أو القهوة، أو فتاة وشاب يرميان بعضهما بوسادات الريش، أو صور لأقدام رجل وامرأة في جوارب ملونة وأمامهما قط وشاشة تلفاز

٢- بعض الاقتباسات من روايات رومانسية، وأحيانًا من روايات رعب لكن إحداهن استطاعت أن تنتزع الرومانسية من سياقها وتلصق الكلمات على صورة الفتاة ذات الكُمين الطويلين أو وسادات الريش أو..أو..

٣- بعض المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي التي

تتحدث عن «العوض» مُرفق معها صور فنانات تزوجن بعد معاناة وطلاق سابق.

كانت دينا كذلك ترفع شعرها البُني مثلما تفعل الفتيات في الأفلام الأجنبية، وترتدي البيجامات المُزدانة برسوم حبّات الفراولة رغم أنها تكره اللون الأحمر، وتستخدم مساحيق تجميل باهظة كي تبدو بلا مساحيق تجميل. لذا -هل ترون هذا معي؟- فدينا تلجأ إلى الأفكار المُعلبة دومًا حين تشعر بالحيرة أو اليأس.

لم تجد تجارب لأحد مع الطقس الغريب الذي فعلته، وإن كانت وصفة مُجربة فمن جربها إذًا وماذا كانت نتيجتها؟!

دون مقدمات، وجدت هاتفها المحمول يُشغل برنامج الموسيقا المُتصل بالإنترنت وينتقي أغنية تحبها ويُشغلها..

«أنا جنبك يعني ما تخافيش.. لو غبتي عني مش عايز أعيش.. معذورة لسه ماتعرفيش، إنتي عندي إيه. وحياتي عندك ما تدمعيش.. دي الناس كلها تتمنى تعيش.. تحت أمرك يالي إنتي مافيش.. زيك في الحياة»

لم تستمع لتلك الأغنية منذ سنوات، ولم تُشغلها قط على مُشغل الأغاني هذا. عند انتهاء هذا الكوبليه صمتت الأغنية. حاولت تشغيلها مرة أخرى، لكنها لم تكن تُكرر سوى هذا المقطع رغم أن الأغنية كاملة أمامها.

همست:

- أنت.. أنت هنا؟

أضيء نور الحجرة لثانيتين ثم انطفأ. هذا مشهد مألوف لديها من الأفلام، دقة واحدة تعني نعم، دقتين تعني لا.. يمكن الاستعاضة عن الدقات بالنور بالطبع.

- أنت جئت هنا لأنني طلبتك؟

جاءت الإجابة: «نعم». فتحت نهلة عينيها الناعستين والتفتت إلى دينا متسائلة:

- هل هناك عطل في الكهرباء يا دينا؟

- كلا.. أعني.. أظن هذا. نامي.. نامي..

قامت دينا إلى الحمام ومعها هاتفها المحمول. أضاءت كشافه ثم أغلقت النور وجلست على طرف حوض الاستحمام. همست مرة أخرى:

- ألا زلت هنا؟

جاءتها الومضة السريعة فتأكد أنه موجود. كانت تريد معرفة المزيد ولن تكفيها الإجابات بنعم أو لا.

- هل تعرف طريقة نتحدث بها بدلًا من الضوء؟ طريقة أكثر خصوصية؟

أمام عينيها ظهر تطبيق «واتساب» للرسائل، ثم ظهرت لوحدة المفاتيح ورأت حروف «ن- ع- م» تُضيء كأن أحدهم يضغطها. لم تظهر رسالة على الشاشة، لكنها استطاعت أن تفهم، وكان هذا كافيًا.

كتبت:

«من أنت؟»

« صفوان.»

«ومن تكون؟ أعني..كيف تتحدث معي هكذا؟»

«أنا في مثل سنك، أصغر بعام، لكن لا يهم.. رأيتك منذ شهور في الجامعة ولفتِ نظري. جُبني منعني من أن أحادِثك قبل انتهاء الدراسة، ثم عرفت أنك في سنتِك النهائية وعرفت أنني.. لست بخير.»

«وماذا حدث؟ أعني.. هل أنت بخير الآن؟»

«نظريًا أنا أفضل بالتأكيد، عمليًا لا أعتقد أنني أخضع لمقياس التحسُّن الذي تفهمينه. لقد زال الألم لكن..»

«لكن؟..»

ظلت دينا تنتظر رده، لكنه اختفى. سمعت صوت مقبض باب الحمام يدور فانتفضت صارخة.

- دينا؟ أنت بالداخل؟ لماذا لم تُضيئي النور؟

كان هذا هو صوت أبيها مُستنكرًا. دسَّت هاتفها المحمول في جيب بيجامتها وخرجت تُغمغم عن المصباح الذي لم يكن يعمل حين دخلت الحمام منذ قليل.

أغلقت باب حجرتها عليها وفكَّرت في أن توقظ نهلةوتحكي لها. فتحت المحادثة التي كانت تكتب فيها لصفوان.. لا شيء سوى ما كتبته هي بينما كان هو يُضيء حروف لوحة المفاتيح فقط ويستخدمها مثلما تستخدم الأرواح لوحة الويجا..

همست دينا لنفسها:

- مثلما تستخدم الأرواح لوحة الويجا؟!

***

لم يظهر صفوان لعدة ليال تالية، ظلت دينا فيها تراجع ما كتبت وتُفكر فيما قد تكون أخطأت فيه فأغضبته. هل سؤالها عن ماهيته أغضبه؟

أرسل إليها بعد أسبوع تقريبًا من الانقطاع. اهتزت الإضاءة ثم أضاءت شاشة هاتفها المحمول وظهرت لوحة المفاتيح.

ظل قلبها يدق بعنف واحمرت وجنتاها وهي تُدوِّن الحروف التي تُضيء أمامها على الشاشة في ورقة. كانت تريد أن تحتفظ بكلماته وتقرأها مرات ومرات، كما ترى الفتيات يفعلون..

الحقيقة أنها كانت تفتقده..

«دينا.. افتقدتك..»

«صفوان.. أرجوك لا تغضب مني. هل فعلت ما أغضبك؟»

«أتعرفين أنني أتحدى كل القوانين كي أتحدث إليكِ؟ أتعرفين أنني ألعن جُبني الذي حال دون أن أنظر إلى عينيكِ وألمس يديك وأسمع صوتك؟»

«أعرف...»

الحقيقة أنها لم تكن تعرف شيئًا على الإطلاق. أي قوانين تلك التي يتحدث عنها؟ لكنها لم تشأ أن تقطع حبل الرومانسية.

«صفوان.. عِدني أنك لن تغضب مني مرة أخرى..»

«عديني أنك لن تسألي عن شيء بخصوصي، وأنا سأخبرك بكل شيء في الوقت المناسب.»

«أعِدك»

« كيف كان يومك؟ احكي لي..»

ظلا يتحادثان طيلة الليل، وبعد أربعة ساعات اختفى صفوان مرة أخرى. اختفى وتركها عشرة أيام مع أوراقها تراجع ما قالته بحثًا عما أغضبه مُجددًا، وتلوم نفسها على أنها عاجزة عن الاحتفاظ بأي علاقة من أي نوع.

يجب أن تكون إيجابية أكثر..

فتحت صفحة واحدة من تلك المجموعات التي تهتم بالماورائيات واليوجا وطاقة الأحجار والرقية الشرعية والحضْرات الصوفية -لا أعرف كيف لمجموعة واحدة أن تهتم بكل تلك الأمور في نفس الوقت رغم تعارض بعضها في الأساس- ثم راحت تبحث عن اسم الشاب الذي يدير المجموعة، فأرسلت له رسالة على حسابه على فيسبوك.

«السلام عليكم يا أستاذ مهند. كنت قرأت في مرة عن الإسقاط النجمي في الجروب وكنت قد كتبت أنت أنه يمكننا التواصل مع المتوفين. أعرف كل شيء عن الإسقاط النجمي لكني أريد أن أتواصل مع شخص متوفٍ لا أعرف شكله. هل يمكن أن أتواصل معه بهذه الطريقة؟»

«عليكم السلام يا آنسة دينا. لا أظن أن من الممكن التواصل مع أشخاص لا تعرفين أشكالهم على الأقل عن طريق الإسقاط النجمي. أقترح أن تتواصلي مع وسيطة روحانية أعرفها، فتاة

خيِّرة تقرأ التاروت وتتواصل مع الموتى دون وسيط مثل لوح الويجا أو غيره.»

«أشكرك.. هل من الممكن أن ترسل لي رابط حسابها؟»

«ليس لها حساب على فيسبوك، سأرسل لك رقم هاتفها.»

***

تحدثت دينا إلى الوسيطة الروحانية، ولتعذّر مقابلتهما كون كلٍ منهما من محافظة مختلفة، تقابلتا عن طريق مكالمة فيديو على تطبيق سكايب.

حاولت الوسيطة أن تعرف أكثر عن صفوان وصفاته، ثم عرضت عليها دينا المحادثة بينهما فابتسمت الوسيطة وقالت:

- قصة حب! لا أصدق أن في العالم كل هذه المحبة القادرة على عبور حدود الموت.

- لا أعرف إن كان ميتًا كما أخبرتك، لكن واضح أنه كذلك.

- دعيني أجرب شيئًا. هل لديك دمية أو «دبدوب»؟

- بالطبع.

- حسنًا.. لم يُمكنني التواصل مع صفوان لأننا لا نملك أي شيء من أثره أو مما يُحب، لكن يمكننا فتح الباب الروحاني بين عالمنا وعالم الأرواح وحثه على لمس هذه الدمية والسكن بداخلها، وقتها يمكن أن ترسلي لي هذه الدمية وسأتواصل معه من خلالها. ما رأيك؟

- وهل.. هل هذه طريقة مضمونة؟

- بالطبع، ومُجربة.

يبدو أن دينا لم تتعلم بعد من الأمور «المُجربة»، فأحضرت دمية قماشية على شكل أرنب، وأطاعت الوسيطة في كل ما طلبته منها، بما فيها وضع شعرة أو اثنتين من شعرها داخل الحشو. ماذا يمكن أن يضرها من فعل تافه كهذا خاصة أن الوسيطة الروحانية -كما زعمت- فشلت في استدعاء صفوان، فهي لم تجد أي روح ذات صلة بدينا في العالم الآخر بهذا الاسم.

- ربما هو اسم مستعار يا دينا. لو حادثك مرة أخرى حاولي معرفه اسمه الحقيقي.. كلا، الأفضل اطلبي منه أن يصف شكله الأرضي لك.

هكذا، مر يومان آخران يائسان، ارتدت فيهما دينا سُترتها الكروشية ذات الكمين الطويلين أكثر من اللازم، وصورت أظفارها المطلية باللون الأسود أمام النافذة التي تبدو منها الشجرة الوحيدة في شارعهم وشاركت الصور عبر إنستجرام وحالة الواتساب.

ليلًا، فتحت حالة الواتساب لترى من شاهد صورتها، ففوجئت أن عدد المشاهدات خمس وعشرون، منها حساب لا رقم ولا صورة.

دون مُقدمات، تدحرج الأرنب المحشو ثم هوى من فوق الكومود.

- صفوان؟!

كتبت له رسالة نصية، فلم يُجب. نظرت إلى الأرنب؛ كان

يتحرك، يسير مُتأرجحًا على قدميه القصيرتين، ينظر يسارًا، يُسرع في السير خطوتين، ثم يطير مصطدمًا بالحائط كأن شيء دفعه، وتسيل من رأسه الدماء.

صرخت دينا رغمًا عنها، وسمعت صوت أبيها من الخارجيصيح هلعًا:

- دينا؟ ما بك؟

اقتحم حجرتها ونظر إليها في قلق حقيقي، لكن صوته لم يظهر فيه سوى البرود.

- نوبة هلع ثانية؟

- أ.. أعتقد.. أجل.. أجل..

عبرت جوار أبيها قاصدة المطبخ. وهي ترتجف، ملأت كوبًا باللبن من «الكسرولة» ووقفت تشربه وهي تتذكر الحادث الذي أودى بحياة أمها منذ خمس سنوات تقريبًا. كانتا تعبران الطريق إلى مبنى الجامعة لتقديم الأوراق اللازمة لالتحاق دينا بها حين صدم أمها «ميكروباص» طائش حطم جُمجمتها.

تتذكر آخر ما قالت أمها قبل الحادث، كانت تحلم معها باليوم الذي تتخرج فيه لتعمل مُعيدة ثم دكتورة في الجامعة. لماذا أعاد صفوان تمثيل حادث أمها أمامها مرة أخرى؟

عادت إلى حجرتها وأمسكت الأرنب، كان ينز الدماء بالفعل. وضعته تحت الحوض وصبّت فوقه مسحوق الغسيل ثم فكّرت أن تُعلقه في الشرفة حتى يجف، لكن دون أن تُدرك وجدت نفسها تلفه في منشفة وتُعيده إلى حجرتها، وبدلًا من أن تضعه

على الكومود، دسَّته تحت الأغطية وكأنه سيبرد.

- صفوان؟ أهذا أنت؟؟

***

بعد ثلاثة أيام، استيقظت دينا صباحًا على صوت يهمس اسمها. فتحت عينيها لتجد الأرنب ينام على جنبه الأيسر وينظر إليها.

- صفوان؟!

«دينا..»

دارت بعينيها حولها لتُدرك أن الصوت يتردد في عقلها مُباشرة. ابتسمت، أمسكت بالأرنب وربَّتت على رأسه.

- صباح الخير يا صفوان..

«صباح الخير يا أجمل من أشرقت عليه الشمس..»

«لا أريد أن أزعجك فتبتعد مرة أخرى. أريد فقط أن أعرف ما يضايقك ولن أفعله أبدًا»

«لا يمكن أن أتضايق من شيء تفعلينه، لكنها القوانين..»

«قوانين؟»

«قوانين عالمي التي أخرقها بحديثي معكِ. عالم الموتى.»

«كنت مُتأكدة أنك.. لست في عالمنا.»

«أنا ميت يا دينا. تعجبت حين عرفت أن والدتك توفيت بنفس الطريقة التي رحلت أنا بها عن الدنيا.»

«كيف عرفت؟»

«هي أخبرتني.. وترسل لك السلام.»

اتسعت عينا دينا وجلست تنظر إلى الأرنب في حيرة وحماس. همست:

«هل يمكن أن أحادثها؟»

«كلا بالطبع. أنا الوحيد الذي جرؤت على خرق القوانين من أجلك. دعينا من الحديث الذي يذكرني بالمسافات بيننا، وأخبريني، ماذا ستفعلين اليوم؟»

«سأظل معك.»

«ماذا لو شاهدنا فيلمًا معًا؟ اختاري ما تشائين وسيعجبني»

خطر ببال دينا فورًا تلك الصورة لشهيرة التي تُبين أقدام رجل وامرأة في جوارب ملونة وأمامهما تلفاز يعرض فيلمًا. لم يكن لها ذوق مُحدد في الأفلام، لكنها تعرف ماذا تشاهد الأخريات في مثل تلك المواقف.

فتحت جهاز اللابتوب الخاص بها وراحت تبحث عن فيلم رومانسي يُعبر عن علاقتهما، واختارت فيلم «منزل البُحيرة» حيث البطلان يتبادلان الرسائل من زمنين مختلفين ويسعيان للقاء، لكن البطلة تعرف أن حبيبها مات في طريقه لموعدهما المُستقبلي فتقرر إنقاذه قبل أن يموت.

صنعت طبقًا من الفيشار بعد رحيل أبيها للعمل ونزول أخيها مع أصدقائه، ثم وضعت الأرنب جوارها وشاهدت الفيلم وهي تضحك، فتسمع صفوان يضحك في عقلها، تبكي، فتشعر بتلك

اللمسة الباردة على عنقها.

صفوان هنا، ولا يهم كيفية تواجده طالما يحبها.

***

حين كانت تنزل دينا لشرب القهوة مع نهلة في الـ«كافيه» القريب، كان الباب ينفتح أمامها قبل أن تلمسه. كانت تعرف أن صفوان من يفتح لها باب الـ«كافيه» وباب سيارة الأجرة. كانت تتعمد الرقة حين تضحك، وتحرص على وضع أحمر الشفاه والخدود حتى تبدو كالمسلوخة، لكنها كانت ترى صور الفتيات على «انستجرام» مسلوخات مدهونات بمساحيق التلميع وتحت صورهن مئات التعليقات المبهورة بجمالهن «الطبيعي» هذا.
تنظر لها نهلة وهي تأكل رغوة الكابوتشينو بالملعقة وتسألها مُشاكسةً:

- «بِت».. هل تعرفتي على أحدهم؟ ليس التأنّق من عادتك. هل هو هنا؟

تضحك دينا وتغطي وجهها بكفيها فتمنح لنفسها فرصة للتفكير في إجابة، لكنها كانت تُحب نهلة، ولن تُقاوِم فكرة الحديث عن صفوان.

- أجل.. شخص تعرفت عليه عن طريق.. الفيسبوك. لم نتقابل بعد، لكنه يسكن بالقرب مني ويعرفني ويقول أنه يراني كثيرًا.

- وماذا يمنع أن تتقابلا؟ يبدو أنه قبيح ويخاف أن تهربي منه.

- كلا بالطبع! صفوان ليس قبيحًا.

لاحظت أن صوتها عالٍ عندما التفت إليها الشاب خلف الكاشير

وداري ضحكته. لم ترَ صفوان لكنه وصف لها نفسه. صفوان أشقر الشعر واللحية، عيناه بُنيتان، بشرته بيضاء ذات نمش. تتخيله مثل أبطال المُسلسلات التركية أو على الأقل يبدو مثل الشاب السوري في مطعم «ليالي الشام» عند أول الشارع الذي تسكن فيه.

- «بِت» يا دينا، هل هو الشاب السوري الذي يعمل في مطعم ليالي الشام؟ ذلك الذي يقول لكل فتاة تشتري منه «تُقبرني عيونك» تقريبًا أو شيء من هذا القبيل؟ هذا شاب يمازح الفتيات كلهن، هذا أكل عيشه، ولا يجب أن تتصوري أنك أفضل منهن في شيء كي يحبك أنت بالذات.

- كلا، كلا.. ليس هو. بالتأكيد ليس هو.

- وكيف تعرفين؟ هل حادثته هاتفيًا؟

- لا.. أعني.. أجل.. أجل.. صوته مختلف.

قبل أن تدُس دينا ملعقتها في رغوة الكابوتشينو الخاص بها، وجدت رسمة ورقة الشجر التي صنعها من حضّر القهوة باستعمال الحليب المخفوق تتحول إلى رسم لقلب دون أن تمسها.

***

كانت تعرف أن صفوان هو من يرسم لها القلوب في رغوة الكابوتشينو، وهو من يضع زهرة صغيرة تحت وسادتها كل يوم، وهو من يختار الأغنية التي توقظها كل صباح.

ثم أدركت أن صفوان صار يتجاهل رسائلها وحديثها إلى

الأرنب بعد أسبوعين عاشتهما معه في الجنة. عرفت أن صفوان غاضب من شيء لا بد وأنها فعلته دون قصد.

فقدت شغفها بفعل أي شيء، فكل ما تفعله يُذكرها به، ثم تتوالى ذكرياتها معه وتتقلص معدتها.. تلوم نفسها..

تخبرها نهلة أن هناك شيئًا غير مُطمئن بشأن صفوان هذا، فعلاقتهما سامة تحيل حياة دينا إلى عيشٍ داخل أرجوحة عملاقة، ترتفع بها إلى عنان السماء تارة، ثم تهوى بها إلى أغوار الأرض تارة.

ثم -كما تنبأت نهلة- يعود صفوان مرة أخرى، يتحجج بقوانين عالمه، يحدثها عن وصية أمها له أن يعتني بها. تغرقه بالاهتمام هذه المرة لكنه لا يفتح لها الأبواب ولا يرسم لها القلوب.

وبدأت دينا تدفع ثمن وجود صفوان وحبه، وكان الثمن خطيرًا..

لكنني -أنا لاشين- أذكر أن أول ما دفعته دينا ببساطة وبلاهة تُحسد عليهما هو قبولها بالزواج من صفوان.

كان غاضبًا للمرة الألف لسبب تافه وظلت تُراضيه وهي تُحدثه عبر الأرنب المحشو.

«ماذا يُغضبك الآن يا حبيبي؟»

«أنا أعرف أنه سيأتي يومًا تُفضلين فيه رجلًا حيًا زوجًا لك. أنا أخرق قوانيني كل يوم لأجلك وأنتِ ستقعين في حب أي ذكر ذي جسد مادي. أعرف هذا..»

«ومن قال أنني أريد رجلًا سواك؟»

«لأنني بساطة لست مثلك. ستخونينني، أو على أقل تقدير ستسأمينني.»

«صفوان، أنت تُحيل كل حديث بيننا إلى شجار.»

«أترين؟ ها أنت بدأت تسأميني. عملك الجديد هذا سيُعرفك إلى رجال آخرين، وأنت تنشغلين عني يومًا بعد يوم وتنسين الأرنب البغيض الذي حبستني فيه..»

«كل هذا لأنني تحدثت مع أمجد زميلي في العمل، أليس كذلك؟»

«أمجد أو غيره.. لا يهم. يبدو أنني ظلمت نفسي بما أفعله معكِ.»

«صفوان.. ماذا تريدني أن أفعل كي تهدأ وتطمئن؟»

«هل تتزوجينني؟ لن أطلب منك شيئًا سوى أن تقبليني زوجك حتى نلتقي. انتظري.. انسي ما قلت. أنا غبي.. انسي.. تصبحين على خير.»

«صفوان انتظر!»

«وداعًا..»

«صفوان! أنا أقبل الزواج منك!»

«وداعًا..»

وظلت تحدق إلى الأرنب لدقائق، ثم انهارت باكية.

***

كانت دينا قد وجدت عملًا في مركز خدمة عملاء لشركة اتصالات، وهو عمل مرهق، لكنها انغمست فيه كي تنسى اختفاء صفوان.

أمجد الشاب الأسمر النحيل يأتها بشطائر الدجاج المقلي أو الشاورما كل يوم في موعد استراحة الغداء، ولا يتحدث إلا عن أمورٍ عامة يستقيها من الأخبار الرائجة على صفحات الفيسبوك، ثم بدأ يحفظ المنشورات التي تُعجبه ليُريها لها في استراحة الغداء، خاصة المنشورات المُضحكة المُبهجة. حين تضحك وتُداري فمها بكفها كان يختلس نظرة خجلى إلى عينيها، وإلى الخصلة البُنية الناعمة المُتبدية من تحت حجابها، ثم يشتعل بالخجل فيدفن مشاعره في جمع ما تبقى من الغداء في الكيس وقد نَفَر شريان جبهته توترًا.

كان كذلك يتحاشى الجلوس جوارها في الحافلة، بل يجلس خلفها ولا يُحدثها أبدًا، لكنه يُرسل لها روابط لمنشورات بها اقتباسات من روايات، لا يقصد منها سوى أن يتعرف إلى ما تحب وما لا تُحب دون أن يتطفل عليها.

لم يكن أمجد يريد من دينا سوى تلميح أنها تميل إليه، بعدها كان ينتوي أن يطلب منها رقم هاتف والدها مباشرة.

مع الوقت، بدأت دينا تراه لطيفًا محترمًا، يُشعرها وجوده بالأمان، ومع مرور الشهور نَسيت وعدها لصفوان، وظنت أن في إمكانها أن تعطي رقم هاتف والدها للشاب الأسمر الطموح.

***

- وماذا حدث لصفوان يا «بِت»؟

- لا شيء.. اختفى منذ شهور.

- وهل تحبين أمجد؟

- أرتاح إليه. هو ليس في وسامة صفوان ولا جرأته، لكنه رجل مُكافح وقد نال إعجاب أبي. سنقرأ الفاتحة الأسبوع القادم إن شاء الله. فرصة كي ترينه وتخبريني برأيك فيه.

تعجبت نهلة من نبرة الاستسلام في صوت دينا التي لم تكن تريد شيئًا في الدنيا سوى «عريس» تحبه ويحبها، لكنها كانت تعرف أن صديقتها كذلك كانت تحب فكرتها عن الحب والمُقتبسة من الأفلام ومنشورات وسائل التواصل الاجتماعي، وأن شخصًا -عاديًا- مثل أمجد لن يُشبع توقها لتكون جزءًا من صور انستجرام، وسيجبرها على أن تكون «هي» لأنه هو نفسه لا يشبه شيئًا سوى نفسه.

حين رأته نهلة بالغت في انبهارها بشكله وأخلاقه كي تُشجع صديقتها على قبوله، ولم تكن تكذب في الواقع، فهو ليس قبيحًا وأخلاقه لا غُبار عليها وبالطبع يحب دينا حبًا صادقًا، لكنه حب لا يصلح للتصوير ولا للتباهي الأجوف.

في يوم قراءة الفاتحة، لم تدعُ دينا أحدًا من صديقاتها سوى نهلة، وبدأ الحفل الصغير بهدوء أكثر من المُتوقَّع، ثم حين جاءت أخت أمجد بدبلتي الخطوبة على صحفة فضية وسط بتلات الأزهار، لاحظت نهلة تحديق صديقتها إلى وجه خطيبها ثم نظرة الهلع التي بدأت تعلوها. وقبل أن تمس الدبلة إصبعها صرخت، وضربت يد أمجد ثم هرعت تختبئ خلف باب حجرتها.

هرعت نهلة ووالدها إليها ليجداها جالسة خلف الباب تبكي وتفُك حجابها وهي تُكرر:

- لا أريد أن أخطَب.. لا أريد أن أخطَب.

نظر الأب إلى نهلة في حيرة وهو يغمغم:

- أقسم بالله هي من جاءت بالعريس وقالت أنها موافقة عليه. افعلي شيئًا يا ابنتي.

- لا تقلق يا عمي، اخرج لضيوفك وأنا سأتولى أمرها.

راحت نهلة تجمع دبابيس الحجاب من على الأرض ثمجلست جوار صديقتها وأمسكت بكفيها وسألتها:

- ما بكِ يا «بِت»؟ أرأيتِ عفريت؟

هزّت دينا رأسها إيجابًا وهي تقول:

- لقد.. لقد رأيت وجهه يتحول إلى وجه قرد.. وكفه صارت مُشعرة ذات مخالب..

- قرد؟! أتمزحين؟ دينا، انظري إليّ، الرجل لم يتحول إلى أي شيء بل هو كالقمر كذلك، لو لم أكن أحب عصام لخطفته منكِ. هيا.. دعيني أثبت الحجاب مرة أخرى ولنخرج.

لكن ما أن خرجت الشابتان حتى صرخت دينا وهجمت على أمجد تضربه بالصحفة وهي تصرخ:

- اترك أبي اترك أبي أترك أبي!

رغم خفة وزن دينا، إلا أن المجتمعين لم يفلحوا فىأبعادها عن الشاب البائس إلا بعدما ضاعت ملامحه خلف ستار الدماء

المنهمرة من رأسه. وقتها فقط تركت دينا الصحفة تسقط من يدها ونظرت إليه في فزع حقيقي.

- أمجد؟ كيف؟؟ كيف؟

ظلت والدة أمجد تصرخ وتسب وهي تسحب ابنها، بينما والد العريس يغمغم محاولًا ضبط أعصابه:

- عالجوا بناتكم أولًا قبل أن تفكروا في تزويجهن.

وخرج الجميع من الشقة الصغيرة، وظلت دينا واقفةوسط الصالة بفستانها الزهري المُبقع بالدماء تنظر إلى انعكاس وجهها في الصحفة الفضية وتهمس:

- صفوان؟ أهذا أنت؟

***

ليلًا، أتت والدة نهلة ووقفت تُحدث والد دينا على بابالشقة في محاولة لإقناعه أن يترك ابنته تبيت ليلتها معهم.

- الباب في الباب يا حاج، ولا يوجد أحد سوانا أنا ونهلة وأختيها الصغيرتين.

- لا يصح يا حاجة أن أترك دينا تبيت خارج بيتها.

- وكيف يصح أن تبيت نهلة مع دينا وفي البيت رجلان؟ أنا أعرف أنك في حُكم والدها وأخوها صغير والبيت أمان. أنت من ربيت نهلة يا حاج وهي طفلة أم نسيت؟

كان والد دينا يحترم نهلة ووالدتها ولا يرى في بياتها مع ابنته انتقاصًا في أخلاقها، خاصة وابنه لا زال في بدايات المراهقة

ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، لكنه كان كذلك لا يحب أن تختفي دينا من تحت نظره تحت أي ظرف، لذا رفض في كياسة فلم تجد السيدة بُدًا من التمسُّك برأيها ورفضت أن تبيت نهلة مع دينا مرة أخرى .

وجدت دينا نفسها وحيدة رغم أن صديقتها ظلت على اتصال بالصوت والصورة معها عبر ماسنجر.

وضعت دينا الهاتف أمامها وراحت تمسح المكياج عن وجهها في المرآة وهي تُحدث صديقتها التي لم تمسح مكياجها هي الأخرى بعد.

- اتصل بي أمجد منذ قليل، وقال لي أنه مستعد لإقناع أهله بالعودة لو أنني فسرت له ما حدث ووعدته أن أزور طبيبًا نفسيًا.

- «عدّاه العيب».

- وهل أنا مجنونة يا نهلة حتى أزور طبيبًا نفسيًا؟

- «بعد الشر عنك».. أنا المجنونة التي تتخيل قرودًا في وجوه الناس، وتتصور أن خطيبها تحوَّل إلى وحش يهاجم أباها بينما الجميع جالسين يستمعون لأغاني رامي صبري ويشربون الشربات.

- أقسم لكِ أنني رأيت كل هذا!

- أصدقك أنكِ رأيتِ ما رأيتِه، لكنني لا أصدق أنك لم تكوني تهلوسين مثلًا.

صمتت دينا حتى تمسح أحمر الشفاه، ورأت نهلة على الشاشة

تحدق إلى ما خلفها وتقول لها:

- ما الذي يتحرك خلفك؟

نظرت دينا إلى ما خلفها في المرآة، ولمحت الأرنب يتقلب في الفراش تحت الأغطية. التفتت في مقعدها فزعةً ثم هرعت نحو الغطاء ترميه بعيدًا وتنظر إلى الأرنب.

لحظات ثم عادت إلى هاتفها المحمول تحمله وتوجه كاميرته نحو الأرنب وتسأل صديقتها:

- نهلة، ركزي.. هل يتنفس الأرنب؟

- أي أرنب؟ الدمية؟ ما بكِ؟ هل تتعاط...

شهقت نهلة إذا رأت عيني الأرنب تدور نحو الكاميرا ببطء. وضعت دينا الهاتف على الكومود وجلست تبكي وهي تنظر إلى الدمية وتقول:

- نهلة.. سأحكي لك لكن رجاء لا تعظيني..

ثم تهمس:

- صفوان، اعذرني..

***

تقابلت الصديقتين في اليوم التالي في نفس الـ«كافيه» لكنهما لم تحتسيا الكابوتشينو هذه المرة، طلبتا كوبي شاي فقط وجلستا تنتظران موعد الجلسة النفسية التي حجزتها نهلة لصديقتها عبر الإنترنت.

- هل أحكي للطبيب موضوع تجاربي مع..

- احكي كل شيء، أعتقد أنهم معتادون على هذه الأفعال الجنونية.

- وهل تعتقدين أنه سيساعدني وقد رأيتِ بنفسك ما حدث مع الأرنب؟

- كلا. لكنني أعرف أنني لن ألجأ إلى دجالين. كفانا ما فعلته بنفسك بسببهم.

- ما رأيك في مراسلة برنامج مثل بعد منتصف الليل مثلا؟ ألم تقولي لي أن سهير زاهر زوجة عم عصام؟

- لا أعرف.. لا أظنها فكرة صائبة.

- أنت تخافين أن يتركك عصام إن عرف أن لك صديقة مجنونة مثلي، أليس كذلك؟

- أنت تهولين الأمور. ميولك الدرامية لا تُطاق. أنا فقط أضع حدودًا لعالمي مع عصام. لم نتزوج بعد حتى يعرف كل تلك التفاصيل عني وعن صديقاتي، وحتى بعد الزواج، فلصديقاتي خصوصية لا أحب أن أتحدث عن مشاكلهن عمومًا إلا في أضيق الحدود.

- أنت غريبة حقًا يا نهلة. حدود وخصوصية مع زوجك؟

- ربما كنت غريبة، لكن هذا ما يمنعني من تزويج نفسي لعفريت.

دون مقدمات، شعرت نهلة بألم حارق على وجهها، ثم أدركت أن صديقتها رمتها بالشاي الساخن ثم كسرت طبق الفنجان ورفعت شظية منه إلى أعلى راحت تصرخ:

- من أنتِ؟ أين نهلة؟ انطقي!

تجمَّع الناس حولهما وأبعدوا نهلة عنها وأخذوها إلى حيث تنظف نفسها، لكن الأخيرة لم ترفع عينيها عن وجه صديقتها الحائرة التي تنظر إلى الطبق المكسور في يدها وتتساءل: ماذا حدث؟

***

يمكنني أن أرى دينا مُتكورة في فراشها تتحدث إلى الأرنب وتحثه على الحديث. كانت تُفكر في أن تجرب الإسقاط النجمي للتحدث إليه وتفهم منه ما الذي يحدث معها.

أغمضت عينيها وفكَّت شعرها وزر بيجامتها العلوي، ثم استرخت وبدأت ترسم ملامحه -كما وصفها- في مُخيلتها وتحاول أن تتواصل معه عقليًا.

تُرى هل للموتى عقل كعقلنا؟

«صفوان.. هل أنت هنا؟»

يقولون أن الإسقاط النجمي لن يفلح في التواصل مع الموتى، وأقول أنا أن الإسقاط النجمي لا ينفع في أي مما يدعون، لا يصلح للتواصل مع الأحياء ولا الموتى، وهو تقنية صعبة للغاية لا يمكن أن تتم بالاسترخاء والتأمل فقط.

أحيانًا ما أشعر برغبة مُلحة -أنا لاشين- في أن أزورمديري تلك المجموعات السخيفة على الفيسبوك وآخذهم في رحلة سريعة إلى عالم الظلمات، أو حتى إلى كهف ديهيا فقط، وقتها سيعرفون في أي ضلالٍ يخوضون.

«صفوان..»

«دينا..»

كانت تراه الآن، ليس كما تخيلته بالضبط، لكنه كان أكثر وسامة بشكل مُزعج تأكدت الآن أنها لم تره في الجامعة من قبل، ولم يره أي شخص آخر وإلا كان حديث الساعة كان ذا شعر أحمر مموج يصل إلى كتفيه، شاحب البشرة، لحيته طويلة تصل إلى أعلى صدره، عيناه باهتتان تعطي انطباعًا أنهما بيضاوان تمامًا.

أهذا هو أثر الموت؟

كان يرتدي عباءة طويلة حمراء يجرُّها خلفه وهو يتقدَّمينتابها شعور مزعج أن ما تراه بعينيها شيء وما يدركه عقلها شيء آخر. يمد يديه نحوها، لكنها لم تكن يدين، بل طرفين طويلين للغاية كذيلي ثعبانين.

تصرخ دينا وتفتح عينيها لتجد قردًا جاثمًا فوقها، قردًا ذاشعر أحمر مموج وعينين بيضاوين.

تصرخ مرة أخرى وتفتح عينيها لتجد نفسها في حجرتها، تنير الأباجورة وتنظر إلى الأرنب المُستكين فوق الكومود. تتنهد وتمسح وجهها ثم تستدير لتنام على جانبها الأيسر وهي تلعن الإسقاط النجمي ومن اخترعه..

لكنها لم تكن وحدها في الفراش.

كان صفوان راقدًا جوارها بنفس الشكل الطبيعي الذي تخيلته عليه، أقرب للشاب السوري في مطعم ليالي الشام.

«ما بك يا دينا؟»

«ما بي؟! هل جُننت؟»

«بل أنت ترين بعيني البصيرة يا حلوتي. الآن أنتزوجتي وقد منحتك القدرة على رؤية الحقيقة كما يراها الموتى. الآن تعرفين لماذا كنت أخشى عليكِ من زميلك؟»

«هل.. هل كان سيقتل أبي حقًا؟»

«كان سيوقع بينكما لينفرد بك.»

«ونهلة؟ لقد رأيتها للحظة تشبه السحالي.»

«لا أريد أن أتحكم بكِ، لكني أرجو أن تسترجعي ما قالته لك. هل الأصدقاء يسخرون من أصدقائهم لهذه الدرجة؟ هي تريد إقناعك أنك مجنونة، لمّحت لك أن خطيبك يعجبها، سخرت من مشاعرك تجاهي وثقتك بي..»

«ألهذا كنت تغضب مني بلا سبب؟»

«كنت أغضب من نفسي لأنني أعرف أكثر مما تعرفين، وأقاوم أن أخبرك بالحقيقة. لا يمكن أن نُمرر ما نعرفه في عالمنا إلى الأحياء، لكنني أحبك.. وأنت تُحبينني حتى أنك قبلت أن تتزوجيني. لم يفعلها أحد من قبلك يا دينا، ولم يفعلها أحد من قبلي.»

«والآن؟»

«الآن، دعينا نستمتع باللحظة، فأنتِ لي..»

***

لم يجد والد دينا بُدًا من تقييدها ونقلها إلى طبيب نفسي حين

حاولت ذبح أخيها بعد أن سخر من دمية الأرنب التي تحبها ومزق ذراعها في نوبة غضب طفولية

تقول دينا للطبيب أن أخاها ليس سوى ثور مشوه محترق الفراء، وأن أباها تمساح مجنح ضخم يقتحم عليها غرفتها كلما اختلت بنفسها.

ظلَت دينا في مستشفى خاص للعلاج النفسي لمدة أربعة أشهر، لم يكف أمجد خلالها عن الاتصال بأبيها للاطمئنان عليها، وحين خرجت أخيرًا، توقَّفت عن رؤية تلك المخلوقات المخيفة، لكنها خرجت فارغة النظرات خاوية الروح، تتناول طعامها بآلية وتتعاطى أدويتها النفسية، ثم تظل تحدق إلى الفراغ.

زارها أمجد عدة مرات، وجلس أمامها بصحبة أبيها يحكي لها عن العمل ويقرأ لها منشورات فيسبوك المُضحكة، وفي مرة بكى كالأطفال فاحتواه أبوها بين ذراعيه.

كان أمجد مُصممًا على أن في مقدورة شفائها، وأنها تسمعه وتناديه.

كذلك لم تفارقها نهلة، وإن انشغلت بين الحين والآخر في ترتيبات خطوبتها، لكنها حرصت أن تُري دينا كل ما تشتري، وتحكي لها كل مشاكلها مع حماتها المُستقبلية وتشكو لها من خنوع أمها وحثها على تحمل سخافاتها الطفولية طالما أن عصام رجل ممتاز يستحق التمسك به.

- أتعرفين يا «بِت»، لن تهمد والدته حتى ننفصل. أمي تراها مجرد غيرة ولا تستأهل غضبي. الحقيقة أنني سأتحملها حتى نستقل أنا وعصام ونتزوج. هو ابنها الوحيد يا دينا، أتفهمينني؟

حين أتصور نفسي مكانها أشعر بالشفقة عليها. هل ستبقى وحيدة للأبد؟

تتنهد نهلة وتغمغم في حنق:

- دينا.. عودي بالله عليكِ.. ماذا أفعل كي تعودي؟! ماذا أفعل؟

****

- ٤ -

أرسلت نهلة -من حساب جديد باسم أنا نوني- رسالة إلى برنامج بعد منتصف الليل تحكي فيها عن معاناة صديقتها مع هذه الروح، وجاءتها إجابة سهير زاهر المُختصرة:

«مساء الخير آنسة «نوني»، ما فعلته صديقتك -أو أنتِ، لن ألومك- هو فعل خطير غير محمود على الصعيدين النفسي والماورائي.

يمكن أن تكون صديقتك قد توهمت كل هذا بعد محاولاتها لـ«جلب» عريس، لكني أريد أن أعرف منك مدى استقرارها النفسي في السابق، فالجنون لا ينبع من فراغ. أنتِ ذكرتِ أنها كانت تُصاب بنوبات هلع مُتكررة واضطرابات نوم.

ويمكن أن تكون قد فتحت بابًا للتواصل مع كيان مجهول عندما جرَّبت تجربتها الغريبة، وعندما حاولت مرة أخرى التواصل معه عبر تلك الوسيطة الروحانية. ويجب أن أخبرك أن الأمر إن كان كذلك، فهي في خطر حقيقي.

تقولين أنها لجأت للطب النفسي، وتحسَّنت ظاهريًا لكنها فقدت ماهيتها وتفاعلها. ثمة دراسة – لا أثق في دقة منهجها العلمي- تقول بأن الأدوية النفسية القوية تُخفف من أعراض المس الشيطاني لأنها تُفقد الإنسان جزءًا من وعيه وتفاعله، فيعجز الشيطان أو الجن عن التواصل معه والتلاعب بإرادته. كما ذكرت لك، لا أثق في تلك النتائج، ففي أي معمل أجريت ومن أين لهم بالمتطوعين الممسوسين إن كنا عاجزين عن إثبات المس من الأساس؟

رأيي الشخصي، اعرضوها على طبيب نفسي آخر وربما طبيب مخ وأعصاب، وحاولوا تهدئتها والالتفاف حولها. لا أنصح بجلب من يحاول إخراج هذا الكيان منها إن كان بداخلها أصلًا. ستسوء الأمور وإن كانت مريضة نفسيًا ستتدهور حالتها بشدة.

كنت أتمنى أن أساعدك أكثر، لكننا نعمل في ظلام تام.

محبتي: سهير.

***

بالطبع لم يجد الأب مفرًا سوى جلب أحد الشيوخ/الدجالين، وقد أقر الرجل بعد معاينتها أن ما بها هو جن عاشق، استدعته بالخطأ حين قامت بالطقس السحري إياه.

والعمل يا شيخ؟ آيات حرق الجن العاشق، والأعشاب!

الحق أنني لم أرَ جرأة الجهل أشد وضوحًا ممن يتعاملون مع القرآن كأنه تعاويذ سحرية، ومن يصرفون الكيانات غير المادية بالشيح ومغلي الريحان كأنهم ديدان بطن.

لكن بعد كل ذلك، ولدهشة الجميع، شُفيت دينا تمامًا وعادت لطبيعتها، لكن الأغرب هو بدء معاناة والدها ونهلة وأمجد من كوابيس مزعجة رأوا فيها جميعًا صفوان على هيئته الغريبة، رغم أن دينا لم تحكِ لأحد ما رأته في كابوسها الخاص.

حكت نهلة ما رأته لصديقتها، بينما الأخيرة تُنصت وهي تنظر إلى كفيها المعقودين:

- لقد هددني هذا المخلوق..

- أنت تحلمين يا نهلة، مجرد كابوس. كل شيء انتهى حقًا.

- كيف؟! لقد أخبرني والدك أنه قد حلم بنفس الشخص الذي حلمت به!

- مصادفة.

- كيف أراه بشعر أحمر ولحية طويلة وأنت قلتِ له أنه يشبه الشاب السوري في..

- مصادفة يا نهلة. الأفلام تؤثر في تخيلنا لشكل الجن، والأشعر الأحمر يبدو مثل النار، ويتسق مع كونهم مخلوقين منها.

- ما هذه الحكمة التي هبطت عليكِ فجأة يا «بِت»؟

- لقد عانيت كثيرًا يا صديقتي.. والآن، ماذا اشتريت في جهازك؟ لا تقولي أنك نسيتي ماكينة صنع الفيشار، لن أزورك لو نسيتِها.

وتضحكان، ويغيب أمر صفوان عن علم دينا ووالدها، ويبتعد أمجد ربما لأنه ملّ الانتظار، وربما لأنها رفضته، وربما لأن تهديد صفوان كان مُخيفًا أكثر من اللازم..

***

- ٥ -

اقتربت سهير وجلست على الأرض جوار دينا وقالت لها:

- أنا أعرف قصتك.. صديقة لكِ أسلتها لي عبر بريد البرنامج.

نظرت دينا نحو نهلة عاقدةً حاجبيها، فقالت الأخيرة وصوتها يرتجف حرجًا:

- لقد كنتِ فاقدة الوعي وقتها، بعد خروجك من المستشفى. كنت وحدي ولم أجد بُدًا من سؤال أستاذة سهير تحت اسم مستعار كي أحافظ على خصوصيتك. ربما تتقابل الوجوه لاحقًا، وهذا ما حدث بالفعل.

فتحت دينا حقيبة يدها، التي لفت نظر سهير حجمها مقارنة بالحقائب التي تحملها رفيقاتها، وأخرجت منها أرنبًا قماشيًا محشوًا أكبر من حجم الكف بقليل، وكان فراؤه مُلطخًا ببقع باهتة مُسودة. دماء قديمة.

لا شعوريًا ابتعدت النساء وسحبوا أطفالهن إلى الخلف، مع أوامر بأن يعودوا إلى الحجرة السفلية، وأدركت سهير أنهم جميعًا يُصدقن تفسير الجن العاشق.

- هذا هو صفوان يا مدام سهير..

- أتسمحين أن ألتقط له صورة بعد عودتنا إن شاء الله؟

- كلا

ثم وقفت دينا حافية وهي تحيط الأرنب بذراعيها وتهتف مذعورة:

- هذا خطر.. ربما يغضب..

تساءلت نهلة:

- ألم تقولي أن الشيخ قد صرفه عنك؟ أنت لم تتحدثي عنه منذ شهور! لماذا تخشين لعبة بريئة؟

- صفوان لم ينصرف. ولن ينصرف أبدًا! لا أعرف إن كان ما يحدث لنا بسببه، أم بسبب جنية عاشقة لعصام لا أعرف. سامحني يا صفوان، أنا لم أفعل شيئًا. لقد كنت خائفة فقط. ماذا تقول؟ كلا. لن أستطيع. أحبك ولكنى لا استطيع ..

شقَّت دينا صفوف المُتحلقين حولها، وقد لفت صوت صراخها نظر الرجال. رفعت نهلة فستانها وهرعت خلفها، تبعتهما سهير. أغلقت دينا باب الحمام الصغير عليها وظلت تبكي بالداخل، ولا تستجيب لقرعات نهلة على الباب.

قالت سهير وهي تُشير إلى أسامة الذي تبعها كي ينصرف ويبعد الفضوليين:

- دينا.. حبيبتي، يمكنني أن أساعدك. اخرجي ولنتحدث.

- إنتِ يا «بِت»، لماذا لم تخبريني أن صفوان ما زال موجودًا طيلة هذا الوقت؟

أتاهما صوت دينا المختنق من الداخل:

- كنت.. كنت أخشى عليكِ وعلى أبي وعلى أمجد منه..والآن أنا أخشى على الجميع.. تعبت.. تعبت..

- نهلة، عودي إلى عريسك واتركيني قليلًا مع دينا. اتفقنا؟

هزّت نهلة رأسها وسارت ببطء مبتعدة وهي تنظر خلفها من وقت لآخر نحو باب الحمام. بعد دقيقة، سمعت سهير مقبض الباب يدور.

- أستاذة سهير.. تعالي..

- اخرجي يا دينا لا تخافي.

- كلا.. صفوان يريد أن يتحدث معكِ أنت ولا يريد أن يسمعنا أحد.

توتّرت سهير وأخذت نفسًا عميقًا، ثم دخلت الحمام المُظلم تمامًا، وتمنَّت لو أن كاميرتها تعمل. الصمت والظلام يزيدان توترها، تشعر بالأرنب يوضع بين يديها.

- ماذا أفعل؟

- أغمضي عينيكِ وصفّي ذهنك.

تذكرت سهير كل ما قرأت من تحذيرات عن التواصل مع الكيانات الماورائية، ولا ينقصها مشاكل أكثر..

سهير.. تماسكي، الفتاة تحتاج إلى مساعدتك..

أهو فخ؟

هي جاهلة وستورطك معها أكثر..

وما الحل فيما نحن فيه دون أن نعرف من الذي يحبسنا هنا؟ بلا كاميرا أنا عاجزة عن معرفة أي شيء، وكلنا غير قادرين على الخلاص مما نحن فيه.

انتظري حتى النهار، ستأتي المُساعدة.. لا تتورطي في شيء..

دارت الأفكار في عقلها بسرعة البرق، فأرجعت كفيها إلى ما وراء ظهرها وهي تهز رأسها وتتراجع إلى الباب.

- هذا خطر يا دينا.. خطر..

- صفوان هو السبب فيما يحدث لنا هنا..

- أهو أخبرك بهذا؟

- أجل.. هل ستسامحينني؟ أنا حقًا لم أكن أعرف أنه سيفعل كل هذا..

من الخارج دوت صرخة، تعرَّفتها دينا على الفور؛ صرخة نهلة. خرجت المرأتان من الحمام وهرعتا إلى الأعلى ليجدا العروس على الأرض تتلقى صفعات وركلات من شخص غير مرئي، وقد بدأت الدماء تسيل من بين شفتيها. كان الجميع عاجز على منع تلك الضربات عنها، ولاحظت سهير أن عصام يقف وظهره ملاصقًا للسور، مُتسع العينين وأمه تحاول بصدق إبعاد العروس عن مكانها وتصرخ في الجميع أن يفعلوا شيئًا، بينهما أمها تطلم خديها وتلوم عصام..

- لماذا يا ابن الحلال لم تُخبرنا؟ لماذا يا ابنتي لم تُخبريني؟

قالت فاطمة في شِدَّة:

- نهلة، لو أن هناك جنية عاشقة لابني فأنا لا أريد لها أن تؤذيكِ. أرجوكِ..

صاح أسامة:

- ماذا تريدين منها أن تفعل؟!

- لو قررت هي أن تُنهي هذه الزيجة فربما تتوقف عن إيذائها وحبسنا جميعًا.

وسط الهرج والصراخ، احتضنت والدة نهلة ابنتها وأخفت وجهها في صدرها، بينما تطوقها دينا بذراعيها وتنظر إلى سهير مُستنجدة.

أشارت سهير لدينا أن تعود معها إلى الحمام، وقد قررت أنه لا مفر من أن تجرب الحل الوحيد لإنقاذ نهلة التي فقدت الوعي وازرقت شفتاها.

***

بعد عشر دقائق، توقفت الصفعات واللكمات، وبدأت العروس في استعادة وعيها، وقد ابتل فستانها تمامًا بالماء الذي سكبوه على وجهها كي تفيق. أنزلوها إلى الحجرة في الطابق السفلي وعاد الجميع معها إلى الدفء والضوء، وظل بعض الرجال بالأعلى مع أسامة وعصام ومحمد موسى بعد أن رحلت الباخرة الصغيرة على وعد بالبحث عن حل لموقفهم.

كانت سهير تقف عند السور شاردة، تقبض على حقيبتها وتبدو منفصلة تماماً عن العالم.

- سهير..

-...

- سهير؟ نوبة هلع أخرى؟

- هه؟ أسامة؟ ماذا حدث؟

- أين كنتِ؟

- في الحمام.. كنت في الحمام..

- هل أنتِ بخير؟

- أجل..

يعرف أسامة حين تُخفي سهير شيئًا عنه، ما بينهما عِشرة أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، ويعرفها أكثر مما يعرف ولديه.

- سهير، هل حدث شيء؟ ماذا حدث مع الفتاة دينا؟

- لا شيء.. هي فقط كانت خائفة وأرادت من يُطمئنها.

- وأنتِ مَن طمأنتها؟ ظننت هذا سيكون دور نهلة.

- أنت تعرف البنات.. لا يستطيع أحدًا التنبؤ بما يُفكرن فيه.

- حسنًا.. تعالى إلى الحجرة بالأسفل، ظهري يؤلمني، القيادة لفترات طويلة والوقوف لم يعودا يناسبانني..

أحاطها بذراعه وهو لا يُخفض نظره عن ملامحها، يحاول قراءة ما تُفكر فيه. جلست سهير بينه وبين رجاء التي كانت تسمع ما حدث بالأعلى وتقُص عليها عفاف مُلخص حكاية دينا. قالت رجاء:

- أنا شخصيًا أؤمن بالجن وتدخله في حيوات بعض الناس. الحاجة مريم زوجة عمي أكبر مثال على ذلك. كانت تراهم وتتعامل معهم بطريقة عفوية للغاية، بل إنها في مرة رَمَت خُفًا على واحد منهم كان يحاول التسلل إلى بيتها. أتذكرين يا سهير؟ نظرت إليها سهير مُحاولة أن تبدو طبيعية وقالت:

- أجل.. كنت في الخامسة عشرة من عمري تقريبًا، وكان أبونا رحمه الله قد اشترى لي أول كاميرا في حياتي، وكانت الحاجة مريم تخبز خارج البيت وأنا أصور الكلاب والقطط خلفها، والذين تحلقوا حولها لتناول ما تُلقيه لهم من أرغفة الخبز. لأول مرة أراها تعامل كلبًا بهذه الخشونة حين قذفته بالخف وشتمته. حين حمَّضت الصور بعدها رأيت كيانًا كالظل يمسك بأطراف الكلب ويحركه.. كيانًا نحيلًا مُشعرًا.. بل هو أقرب لـ«سكتش» خشن مرسوم بقلم فحم لا أكثر.

شهقت فتاتان ونظرتا نحو دينا التي جلست ممسكة بالأرنب، لا ترفع عينيها عنه إلا لتنظر نحو سهير وتنقبض عضلات فكيها.

قالت أحدى الشابات:

- لماذا لا تتخلصي من هذا الأرنب؟ لنحرقه على الموقد هنا.

أجابت دينا في عصبية بصوت هادر وقد احمرت عيناها وانفك حجابها:

- اخرسي.. أنت لا تفهمين شيئًا.

ثم نظرت نحو سهير التي أشاحت بوجهها نحو أسامة الذي تمتم:

- لنهدأ جميعًا. الحقيقة أنا لا أعرف ما الذي يحدث هنا. عقلي مُشتت للغاية.

- أسامة، الواقع أنك تُرهق نفسك كي لا ترى الحقيقة. ما نمر به هو موقف ما ورائي ولا يوجد أي تفسير علمي له.

- أنت تبحثين عن الماورائيات في الأحداث فترينها، وأنا

أبحث عن التفسيرات العلمية فأجدها.

- أنت تبحث عن نسق غير موجود يا أسامة. الأوهام والبارانويا وألاعيب الأنا العليا والهي وكل هذا الهراء لا يُفسر انعزالنا ولا يفسر ضرب نهلة ولا يفسر وجود هذا الأرنب اللعين.. أنت تخاف عليَّ كأنني طفلة وتحاول تفسير العو في الخزانة على أنه وليد خيالي، لكنني لا أتخيل، وإن كنت أنا طفلة تخاف العو، فكُل هؤلاء ليسوا مجانين!

تذكر أنك حملت رواية لاشين 5 حكايات الشمندورة مجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

كانت سهير تنهار، وصوتها يعلو على غير عادتها. كانت غاضبة لكن أسامة لم يعرف سر غضبها، لكنه كان يعرف تأثير الهدوء والظَلمة والنيل على استقرارها النفسي. ضغطت رجاء على كفها وقالت برفق:

- أنا معك. دعكِ من كلام أسامة الآن، هو نفسه رأى وسمع معك ما يؤكد وجود العوالم الخفية. لا أتحدث هنا عن الشياطين والجن، بل كيانات أخرى هو نفسه رآها في الصور التي تصورينها. أتذكرين رحلة الأقصر وأسوان التي حكيتِ لي عنها، أتذكُر يا أسامة ناس النيل؟

- طبعًا يا حاجة أذكر.. هذه ذكرى لا تُنسى.

سألت والدة نهلة بعد أن أنهت رُقية ابنتها بالقرآن:

- ما الحكاية يا مدام سهير؟ أقلقتني.. ناس النيل؟ أيكونون هم سبب ما نحن فيه؟

- كلا.. لا أظن.. فليست كل المخلوقات الخفية مُخيفة..

تنفست سهير بُعمق، ثم ابتسمت لأسامة الواجم وبدأت تحكي..

***

الفصل الخامس

أسوان- ٢٠١٩

يحب أسامة التودد إلى الطلبة، لكن الطلبة دائمًا ما يهابونه ويحسبون لوجوده ألف حساب، حتى أن الهيبة قد تحولت إلى قيد، وصارت الرحلة التي يُشرف عليها دكتور أسامة الصاوي هي العقاب مُجسدًا.

أصر أسامة على تنظيم رحلة نهاية العام إلى الأقصر وأسوان، ووضع لها برنامجًا ثقافيًا شيقًا بالنسبة له، ومملًا بالنسبة للطلبة، لكنها رحلة العُمر كما يطلقون عليها في الكلية، الرحلة التي تتيح لطلاب السنة النهائية الاجتماع بزملائهم وأصدقائهم لمدة أسبوع بعيدًا عن كل القيود.

كان أسامة جالسًا في الشرفة مع سهير يتناقشان في مشكلة طلاق ابنتهما رانيا، بينما يقف شريف يأكل اللب ويسمعهما في غير اكتراث.

- سهير.. لقد مررنا بوقتٍ عصيب خلال الأشهر الماضية، يجب أن ترتاحي قليلًا. اتركي رانيا وعمر مع شريف وتعالي معي إلى الأقصر وأسوان.

- كيف أتركهما يا أسامة والولد لا زال رضيعًا؟ رانيا تحتاج مساعدتي.

قال شريف في غير اكتراث:

- لا تقلقي.. لو حاولت قتله أو حاول خنقها سأتصرف. لدي صاعق.

- شريف!

- ماما! ألا ترين كيف فقدتِ وزنًا أكثر وصار وجهك شاحبًا؟ سافري ولا تقلقي. ماذا سيحدث لنا؟!

- إن كان ولا بُد، سأجعل رجاء تأتي لتقيم معكما حتى أعود.

- كلا! طنط رجاء.. أعني.. سوف تتعب، وعمر يصرخ ثمان وأربعين ساعة في اليوم، و..

ضحك أسامة وقال لسهير:

- وجهك يحتقن! اتركي الأولاد، ولو احتاجوا شيئًا ألف من سيقدم لهم المساعدة هنا.

- ألا ترى كيف يتحدث عن خالته يا أسامة؟

استمر النقاش بين الثلاثة، وقد تمسَّكت سهير بفكرة أن تأتي أختها لتقيم مع ولديها وحفيدها فقط لأن شريف ورانيا سيرفضان، وبهذا ستتملص من السفر مع أسامة.

كانت تريد أن تظل جوار ابنتها، وكانت تخشى النيل، تخشاه إلى درجة الذعر غير المُبرر. لكن أسامة يفعل ما يريد في النهاية، ووجدت ملابسها في حقيبته ووجدت نفسها في الطريق إلى محطة القطار.

***

عند وصولهما إلى الفندق، نزل أسامة للاطمئنان على الطلبة، وجلست سهير تنظر إلى هاتفها المحمول ورقم رانيا ابنتها يظهر على الشاشة، وقبل أن يبدأ الاتصال، أغلقت الخط واتصلت

بشريف.

- لقد وصلنا للتو يا حبيبي.

- حمدًا لله على سلامتكما. استمتعا.

- شريف.. هل تعتقد أن رانيا تود الحديث إليَّ؟

- بالتأكيد، لكن.. امنحيها بعض الوقت وكل شيء سيكون على ما يرام.

- بصراحة، هل تعتقد أنني السبب في انفصالها عن محمد؟

- كلا بالطبع! من قال ذلك؟! حتى وإن كان لك صلة بالموضوع فلا ذنب لك مُطلقًا فيما تسبب فيه كتابك.

- كان عليَّ ألا أستجيب لإلحاح الناس في موضوع المعارض ثم الكتاب. ماذا تعني تلك الظلال التي تظهر في صوري؟ لماذا أصررت كالحمقاء على التأكيد على أنها أشباح؟ ثم كتابي.. ما هذا الاسم السخيف؟ أشباح الموالد؟! لا بد وأن لتلك الظلال تفسير وأنا من تمسَّكت بتفسيري الجاهل الـ..

- ماما.. كفاكِ لومًا لنفسك. كلنا نعلم أنها أشباح، وأنت تعلمين منذ طفولتك أنها أشباح أو جن أو أي شيء خفي مرعب.

- ما كان عليَّ أن أعلن هذا على الأقل.

- هذه حياتك يا أمي ونجاحاتك، محمد لم يتفهم ما تمر به رانيا. شاب جبان.

- لا تحكُم عليه.. ليس كل الرجال كأبيك.

- هذا نصيبها. لا تُفكري في شيء.

- هل تنام رانيا جيدًا؟

- لا أعرف، لكنها منذ عادت من الكويت كفّت عن الحديث تلك الأشياء التي كانت تراها في المرآة.

سهير تعرف أن شريف قد أخذ منها ومن أبيه خليطًا لطيفًا مُريحًا من الصفات، حديثها معه يُثلج قلبها ويُشعرها أن هناك من يتفهم ما تمر به دون أن يحاول إقناعها أنها تتخيل أو أنه من الأفضل تحاشي التفكير في موهبتها الغريبة.

لم يعُد أسامة يُحبذ فكرة استمرارها في البحث في الماورائيات، خاصة بعد ولادة ابنيهما، لم يعُد يُرافقها في الموالد وهي تحاول تصوير الأشباح والجان جنبًا إلى جنب مع الطقوس التراثية الشعبية الساحرة، لم يعد أسامة يميل إلى أي شيء يُعكر صفو حياتهم وأمانها حتى إن كان هذا الشيء هو جزء منها ومن تكوينها.

على جانب آخر، وقف أسامة أمام الفندق، يضُم المعطف حول بطنه الضخم ويرفع ياقته وهو يحادث ابنته عبر الهاتف المحمول.

- الآن لست أمامك، لا داعي للحرج والتوتر. تكلمي يا ابنتي.

- بابا، أنت تعرف كم أحب ماما، ولا ألومها على كتابها أو معارضها، لكنني كنت قد نجحت في إقناع محمد أنني لا أرى أي أشباح في المرآة وأن ما عايشه معي كان مجرد ضغط عصبي نتيجة انتقالي من مصر إلى الكويت، لكن ما حدث أن كتب ومعارض أمي أكدت له أن هناك خطبًا ما بي، وظنَّه جنونًا وراثيًا. ظل يترصّد بي ويراقبني حتى تأكد أنني أرى ما أرى.

- وحين اشتكى لوالدتك أنك لا تريدين الذهاب لطبيب نفسي، أصرَّت على أنك بخير، وأنا ما ترينه هو موهبة متوارثة في عائلتها وقد ورِثت هذه الـ..

- اللعنة.. ورثت هذه اللعنة. لماذا أنا؟ لماذا لم يرث شريف شيئًا؟! لقد ضاعت حياتي وصرت مِسخًا كالذي تصورهم سهير زاهر وتتفاخر بصورهم.

- اهدأي يا حبيبتي.. أنا أعرف موهبة أمك منذ كنا مُراهقين، منذ أمسكت أول كاميرا في يدها وصورت المخلوق الغريب الذي ضربته زوجة عمها. عمها نفسه يعرف أن زوجته وقريبته الحاجة مريم ترى الجن ولم يهجرها. لا ألوم محمد، لكن كل ما أريد قوله أن الله قد يرزقك بشخص لا يخاف تلك الأمور.

- وهل هناك مثلك يا أبي؟

- الكثير..

- وهل سيرث عمر هذه اللعنة؟!

- سنعرف، وحتى نعرف لا تحملي همًّا لشيء..

***

في الصباح، خرج أسامة مع الطلبة في جولاتهم، وظلت سهير نائمة غير راغبة في فعل أي شيء، وفي المساء رفضت الخروج مُتعللة أنها لا تحب النيل في الليل. في اليوم التالي، أصر أسامة على أن تخرج معه وحدها.

أخرج كاميرتها من حقيبتها وهتف وهو يُلقي إليها بمعطف خفيف:

- ارتدي هذا. الجو جهنم بالخارج، لا يُقارن بالليل. لدي ما تصورينه.

- كفانا صورًا يا أسامة.

- ألا تريدين أن تصوريني مع التمساح؟ هذا حلم حياتي منذ كنت صغيرًا يا «هيرو».

وكان قد اعتاد أن يناديها باسم التدليل «هيرو»، والذي يعني بطلة بالإنجليزية كونها تواجه العفاريت ولا تَخَف.

اسم يُذكرها بمراهقتهما، فتبتسم ولا تستطيع مقاومة إلحاحه.

كانت الجولة التي حضَّرها لها هي جلسة مع الريس خولي، باش ريِّس النيل. تسأله وهي تتكئ على ذراعه صاعدة مرتفعًا طينيًا مزروعًا يعلوه خُص تتصاعد منه روائح الحطب والشاي المغلي.

- باش ريِّس النيل؟ ما هذا اللقب؟

- انتظري، لا تُفسدي المفاجأة.. أنا شخصيًا لم أسمع سبب إطلاق هذا اللقب عليه، لكن لديه حكايات مذهلة.

الريس خولي رجل طويل نحيل للغاية، يرتدي عمامة بيضاء صغيرة وجلبابًا أبيض، أسمر اللون دقيق الملامح كدُمية، صوته عميق زادته الشيخوخة وقارًا وسحرًا.

يأتي بعض المرشدين السياحيين بأفواجهم ليسمعوا حكايات الريس خولي مُترجمة، وكان هو أحيانًا يُترجم بعض المقاطع من حكاياته بلكنة جنوبية مُحببة تضغط على كل الحروف.

أخرجت سهير كاميراتها، ثم دسَّتها في حقيبتها مرة أخرى.

صار هناك حاجز بينهما وهو حاجز كالذي يحول بين المرء وبصره إن أصيب بالعمى. كانت تشعر بالنقص والخوف وقلة الحيلة.

- أتعرفون أن نهر النيل يزيد ويفيض صيفًا على خلاف سائر الأنهار؟ للنيل سر، وللنيل سحر.. يُروى أن أحد حُكام مصر القدماء قد أرسل عدة رجال للوقوف على منبعه، فساروا حتى وصلوا جبلًا عاليًا والماء ينهمر من أعلاه، ولانهمار الماء دوي يصُم الآذان. صعد واحد من الرجال إلى أعلى الجبل، وحين بلغ القمة راح يضحك ويُصفِّق، ثم مضى قُدُمًا واختفى، وكلما أرسلوا رجلًا أصابه ما أصاب سابقيه، حتى قرروا أن يربطوا واحد منهم بحبل، فإن أصيب بما أصيب به الرجال جذبوه، وبالفعل تكرر الأمر، وحين جذبوا الرجل كان فاقدًا النطق ثم مات من فوره، ولا يعرف أحدًا ماذا رأى.

سألته سهير في انبهار طفولي:

- وما هذا الجبل؟

- جبل القمر يا ابنتي.. خلفه بحر عجاج أسود كالليل،يشقه نهر أبيض؛ النيل. في هذا البحر أحجار تجذب من ينظر إليها.. تصيبه بالجنون..

- وما اسم هذا البحر؟

- بحر كوري.. يسكن حوله ناس متوحشون يأكلون البشر، ثم بلاد نمنم.

نظرت سهير إلى أسامة وضحكا، كانت حكايته تُعيد إلى ذهنيهما حلقات ألف ليلة وليلة التي كانا يسمعانها في الراديو

وهم صغار. همس أسامة:

- بمناسبة النيل، حين كنت أزور أخي في دسوق، كنت أسمع عن سمكة شيخ البحر، سمكة لها لحية رجل مُسن، وهيئة إنسان، إن ظهرت عند مدينة أصيبت بالقحط والفقر.

- أنت تعرف أن خيالي واسع وهذه السمكة أخافتني فعلًا!

- لا تخافي، لأنني أدعوك على سمك مشوي رائع، ولو جدت فيه شيخ البحر هذا لن أعتقه، وستنتهي حياته مُغلفًا بالطحينة في معدتي!

***

في اليوم الثالث تجرَّأت سهير أكثر، وصارت تنزل وحدها دون كاميراتها، لكنها اشترت دفتر رسم وقلم فحم، وراحت تستعيد أيام كلية الفنون التطبيقية وترسم ما يروق لها من مناظر دون القلق بشأن ظهور أشباح في الصور.

قُبيل المغرب، ساقتها قدماها إلى حيث الريس خولي. كان الخُص خاليًا الآن، والرجل يجلس في قارب صغير يحمل خبزًا في كفه ذات البشرة المُجعَّدة ويُقرب الرغيف من سطح الماء. كان يتحدث، حديثًا ممطوطًا كأنه يُغني أو ينتحب. تراجعت خطوة للخلف وقد صرفت نظر عن وجهتها. داست على كيس بلاستيكي منتفخ فأصدر صوت انفجار جذب نظر الرجل إليها إذ صرخت.

ابتسم ولوَّح نحوها، ابتسمت في عصبية وهتفت:

- السلام عليكم.. كنت أظن أنك تستقبل أفواجًا الآن. لا

عليك..سأعود في الصباح.

- عليكم السلام والرحمة. عودي متى شئتِ.

كان يقف الآن كي يراها جيدًا، ثم فجأة قفز لسان من الماء نحو كفه وخطف الخبز. نظر الرجل إلى الماء وقال شيئًا وهو يضحك، ثم قال لسهير وهو يغمز:

- الأسماك هنا شقية..

هزَّت سهير رأسها مُتفهمة، وقد عادت صورة شيخ البحر إلى خيالها. كانت تعرف أن ما خطف الرغيف ليس سمكة، كانت هذه ذراعًا طويلة ذات كف، ذراع يتعدى طولها المتر ونصف.

***

ظلت سهير مذعورة في حجرتها لا تريد الحديث مع أحد عما رأته، وظلت كلمات لوم ابنتها تدور في رأسها، تقمع كل رغبة في الاستكشاف والتوثيق والوثوق. أما أسامة فكان بين خيارين كلاهما مُر؛ ترك زوجته تعيش طبيعتها أو قمع تلك الطبيعة في محاولة بائسة لإنقاذ استقرارها واستقرار الأسرة.

في المساء قبل الأخير الذين يقضونه في أسوان، طلب من سهير أن يدعوها على العشاء، ثم –وقبل أن تتملص- وجدت نفسها تنزل من السيارة الأجرة عند مرسى المراكب النهرية بدلًا من أن يعودا إلى الفندق.

- أسامة، لماذا تُصر على أن نعود إلى هنا؟!

- ظننتك استمتعتِ بحكايات الريس خولي، ثم إنني لم أصِر على شيء، هذه هي زيارتنا الثانية للمكان. الحقيقة أن الريس

خولي هو من دعانا لرحلة نيلية ليلية.

- كلا!

قالتها قاطعةً وابتعد تبحث عن سيارة أجرة أخرى. في هذه الحالة يجد أسامة نفسه ضائعًا تمامًا، لا يعرف إن كان عليه أن يُجبرها أم يُطاوعها، ولا تعرف إن كانت بعِندها تُحرجه أم تحمي نفسها.

كما ترون، فعلاقة أسامة وسهير مُعقدة، وتزداد تعقيدًا مع خبراتهما ومسؤولياتهما، وأرى -أنا لاشين- أنا علاقتي بها هي العلاقة المثالية لي ولها، بلا تعقيدات أو حدود، فيما عدا مسألة أنني نصف شيطان بالطبع.

وكأنها أمه، وكأنه هو من يخاف الليل والصمت والنيل، أمسكت بكفه وتركته يقودها إلى المركب الصغير الذي يرسو عند مينائه المُرتجل.

الريس خولي يبتسم لها، يتماهى سمار بشرته مع مايحيطه، فتتذكر سهير حابي، النيل القديم المُقدس.. المجهول.

- حابي ليس ربَ النيل..

تنظر سهير إلى الريس خولي، ثم إلى آسامة مُتسائلة. يُكمل الرجل حديثه وهو ينظر نحو الماء:

- لست متأكدًا بالطبع إن كنتما تُفكران في «حعبي» الآن، لكن بالتأكيد فكرتما فيه في وقت لاحق منذ وصولكما إلى هنا. لم يُخلق بعد من لا يتذكر الأب حعبي حين يمر على النهر العظيم اترو-عا.

- كنت أظنك غير مُهتم بالحقائق التاريخية يا ريس خولي.

- أنا مهتم بالحقائق يا دكتور، تاريخية أو غير تاريخية.ما أحكيه نهارًا لا يكون إلا على سبيل التسلية والترفيه، لكن ما أقوله ليلًا لا أصرح به سوى لمن تتلاقى قلوبنا.. مثلكما.. حعبي هو الفيضان.. الأب جالب الخير.. اجلسا.

جلسا، ولم يكن هناك سواهما والريس خولي وشاب آخ لا يعبأ بما يُقال يجلس عند طرف المركب.

- هل معك خمسة جنيهات؟

أخرج أسامة محفظته، لكن سهير كانت أسرع في إخراج الورقة الزرقاء المخضرة من جيب بنطالها. قال ريس خولي وهو يشير إلى ما تحمله:

- هذا هو حعبي، المرسوم على تلك الجهة، ولونا العملة نفسها هما لونا النيل، الأزرق والأخضر. نحن نحمل حعبي هنا وهنا وهنا..

وأشار إلى رأسه ثم قلبه ثم جيبه. أردف:

- ما ذكرته هو ما يعرفه العالم، لكن ما أؤمن به يختلف قليلًا. أنا من جزيرة بيجا حين هجرها الناس منذ ما يقارب نصف القرن، ظللنا هناك، بلا ماء ولا كهرباء ولا صرف صحي كنا نعمل في الجزر السياحية الأخرى في النيل، ولا يعود منا إلى بيجا سواي وعائلتي الكبيرة؛ أعمامي وأبنائهم. لا أعرف تحديدًا لماذا لم نهجرها ولا أذكر كيف كنا نعيش وسط أطلال البيوت القديمة التي كانت مبنية من الجرانيت والطين. الوضع تغير الآن وصارت بيجا جزيرة سياحية مثل باقي الجزر، لكني لا زلت

أحمل في قلبي بيجا القديمة، حين كنت أحيا بروح الطفولة مهما كبرت.

وجدت سهير نفسها تبتسم وتنسى أنهما في عرض النيل، يتجهان إلى مكان ليس لديها فكرة عنه ولا يهمها ذلك. من جديد يسحبها الريس خولي إلى أرض لم يطأها بشر، الأرض التي تؤمن بوجودها لكنها لا تملك الكلمات الكافية لوصفها.

- كانت طفولتي عبارة عن صور ملونة بهية لذكريات نسائنا يتوحّمن أثناء حملهن على طمي النيل، ويرمين خلاص الولادة فيه مُبتسمات أملًا في سعادة أطفالهن وطول أعمارهم. حين كنت أمشط شعري، كانت أمي تجمعه وترميه في النهر كي يغزُر.

قالت سهير:

- زوجة عمي -الحاجة مريم- كانت تعيش في إحدى قرى الدقهلية قبل زواجها به، وكانت تحكي أنهم كانوا يدفنون مشيمات البهائم بالقرب من النيل، وفي طميه، أو يلقون بها في الماء. كانت تخبرني أن البهيمة تُشفى بالماء إن ألقى خلاصها في الماء، وتُشفى بالتراب إن دُفنت مشيمتها في الطمي. هذا مُعتقد شائع حتى في الشمال يا ريس خولي.

- هذا صحيح. قلت لك أن حعبي يعيش فينا، النيل الطيب يعيش فينا، وبينما تتشاءم باقي الشعوب من الماء ويعتقدون بسكن الجن والشياطين في أغواره، نؤمن نحن -المصريين- أن النيل هو مصدر الأمان.

قال أسامة وهو يخرج هاتفه المحمول:

- التقطي لنا بعض الصور يا سهير. لقاؤنا غريب للغاية يا ريس

خولي، فسهير رغم كل هذا تخاف النيل، وكأنك مبعوث إليها كي تُطمئنها. أليس كذلك يا سهير؟

ظلت سهير تنظر عبر شاشة الموبايل وترى أسامة يجلس جوار الريس خولي ويبستم لها كي تلتقط الصورة. ضغطت الزر وتحاشت أن تُعيد النظر إلى ما التقطته الكاميرا، وقررت أن تُسلمه هاتفه بعدها ولا تنظر فيه مرة أخرى.

- لا يوجد ما يُخيف يا مدام سهير، وليس كل ما هو خفي مُخيف.

استمرت الرحلة أربع ساعات، حكى فيها الريس خولي الكثير من الأساطير وذكريات الطفولة والمعلومات التاريخية والسياحية، وظل أسامة يحث سهير على التقاط صور له ولها معًا، والتقاط الصور للأنوار المُتلألئة من الجزر السياحية.

تذكر أنك حملت رواية لاشين 5 حكايات الشمندورة مجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

رنَّ هاتف سهير وتحدثت إلى شريف ثم أعطت الهاتف لأسامة. حين صمت الريس خولي، رآته ينظر إلى الماء خلفه وهو يمد يده بصحن فيه طعام لم تتبينه. قبضت سهير بيُسراها على يُمناها كي لا تلتقط صورة بهاتف أسامة، لكن فضولها غلبها، وكالمُدمنين أمسكت الهاتف بيد مُرتجفة ونَهَلت من مُخدرها الذي كانت تُجاهد كي تمنع نفسها عنه؛ الصور. التقطت صورة تلو الأخرى حتى انتهى أسامة من مكالمته وعاد الحديث

الطبيعي بين ثلاثتهم. ظلت تسترق النظرات إلى آخر الصور حتى وجدت ضالتها، فسقط الهاتف المحمول منها. رفعت عينيها لتجد خولي يُحدق إليها ويبتسم بزُكن فمه، فكادت تسقط إلى الخلف في النيل. صرخت، فهرع أسامة نحوها.

- لا شيء يا أسامة.. أريد العودة الآن. أرجوك.

***

صوت الماء المُنبعث من دورة المياه المُرفقة بالحُجرة يُشعرها بالغثيان، يُخيفها.. تُرى هل ما رأته جوار الريس خولي يتسرب داخل القطرات المُنهمرة على جسد زوجها الآن؟

يُناديها أسامة كي تُناوله بيجامته، فلا ترُد عليه. كانت تُحدق إلى الصور بعينين مُتسعتين.

يخرج الزوج البدين مُرتديًا البُرنس، مُتسائلًا:

- هل وجدتِ رسائل الغرام على هاتفي؟ كان عليَّ أن أخفيها أفضل من هذا.

لم ترُد، فزالت الابتسامة عن وجهه وللحظة ظن أنها وجدت ما يُشين حقًا على هاتفه. جلس جوارها غير عابئ بأن تبتل الملاءة. نظر إلى الشاشة، ثم جذب الهاتف منها وأبعده عن عينيه كي يرى أفضل.

الصورة الأولى: خولي ينظر خلفه إلى النيل ويمد يده نحوه بشيء.

الصورة الثالثة: الماء يغطي كف الرجل بمعجزة ما رغم أن كفه عالية.

الصورة السابعة: كُتلة ماء تظهر جواره على حافة القارب.

الصورة الثانية عشر: خولي ينظر إلى كتلة ماء تقارب طوله ويبدو كأنها تجلس جواره.

الصورة العشرون: لكتلة الماء قدمين، وذراعين طويلين تلفهما حول كتفيه. لكُتلة الماء طرف يشبه الشعر، يتطاير الرذاذ من أطرافه. لكُتلة الماء رأس تستند إلى كتف الرجل وهو ينظر إليها في محبة لم يراها أسامة في عيني بشر من قبل.

- سهير.. سأمسح هذه الصور..

وقبل أن تعترض، أخذ الهاتف معه إلى دورة المياه وأغلق الباب عليه، وعرفت أنه قد مسحها.

***

سهير تغلي غضبًا..

لم تنم ليلتها، ولم تُطِق حتى أن تنظر إلى وجه زوجها،وكان هو يعرف السبب جيدًا ولا يُبالي. ستغضب مثل الأرنب الصغير –وسهير حين تغضب تبدو حقًا مثل الأرنبة في فيلم زوتوبيا – وستنسى كل شيء بعد أيام.

لكن سهير لم تكن مجرد أرنب ظريف حانق، ولم تنس..

في الصباح التالي، لم يجدها أسامة جواره، بل وجد رسالة منها على واتساب تخبره أنها خرجت تتمشى وربما ستتأخر. اتصل بها على الفور فلم ترُد عليه. هنا أريد أن أخبركم –أنا لاشين- أنا أسامة يبدو كثور بيسون حين يغضب، ولم يكن غضبه قط كرتونيًا.

سهير تعرف كيف تُضايقه، وكيف تحوِّل الضيق إلى صفعة معنوية مُهينة.

استقلت سيارة أجرة إلى حيث مجلس الريس خولي، وحين رآها ترك من كان يُجالسهم واعتذر بابتسامة، ثم نزل المنحدر الصغير ليُلاقيها، ثم يسير أمامها وهو ينظر خلفه إليها كي تتبعه.

وصلا إلى مكانٍ خالٍ من الزحام والسائحين، فجلس أرضًا وحذت هي حذوه، في عينيها عشرات الأسئلة.

- ريس خولي، أنت عرفت أنني رأيت المخلوق في الماء حين كنت تُطعمه الخبز؟ ألهذا دعوتنا لتلك الرحلة؟

هذا صحيح.

- لماذا فعلت ذلك؟! من أنت؟ وماذا تريد مني؟

- أنا رجل بسيط وجدت أن لديك ما ليس لدى غيرك، وأحببت مشاركتك سري الصغير كي لا يموت معي. أتعرفين لقبي هنا؟

- باش ريِّس النيل؟

- أجل. هذا لقب لم أكتسبه لخبرتي في الإبحار فيه، لكن له حكاية، ولو لم تخافي أمس لحكيتها لكما. هل لديكِ وقت للسماع؟

***

حين كان خولي في الخامسة من عُمره، ذهب مع خالته الصُغرى إلى ضفاف النيل كي ترمي خلاص أمه من ولادة أخته. ألقتها باسمة وقد أجبرته على الابتسام وظلت تُدغدغ ما تحت إبطيه

حتى ضحك. ثم جلسا يدفنان قدميهما الدقيقتين في الطمي ويراقبان الماء الرائق ويُنصتان إلى صوته.

- أعرف أنك تغار من أختك المولودة.

- أنا أكرهها. منذ وُلدت والكل لا يراني حتى أمي،أتعرفين أنني لم أتناول فطوري ولا غدائي؟ لقد نسيتموني!

- كُلنا نسينا أنفسنا يا خولي، غمرتنا سعادة أمك وأبيك. اترك نفسك للتيار وستطفو، سيوصلك إلى مكان لم تكن تحلم به قط.

- لا أفهم. أنا جائع وأكره تلك الطفلة.

- أنت فقط لم تمنح نفسك فرصة لتحبها. تعالى نأكل، ثم انس كل شيء ودعها تدخل قلبك.

- هي قبيحة وتصرخ طيلة الوقت!

- قلبك سيمدها بالجمال، وصراخها سيصير دقاته.

- هيا نأكل. أنت تقولين كلامًا بلا معنى.

وبعد أيام قليلة، صارت أخته أوشاري هي دُنياه وما فيها. لا يُنكر أنه استمر في الغيرة من اهتمام الجميع بها، لكنها احتلت قلبه تمامًا، وصارا لا يفترقا حتى غرقت أوشاري في النيل وهي ابنة عشر سنوات.

يُقال أن تمساحًا هاجمها، يُقال أنها ارتطمت بصخرة ففقدت الوعي وغرقت. المهم أنها نزلت تستحم ولم يرها أحد بعدها ولم تظهر لها جثة.

ظل خولي يجلس عند الضفاف يوميًا، في البداية لعلها يجدها

تسبح، ثم صارت جلسته في انتظار جثتها. لكن النيل ليس بحرًا، وأغلب من غرقوا فيه لم يظهروا مرة أخرى.

بعد أربعين يومًا من وفاة أوشاري، كان خولي جالسًا في مكانه المعهود يرفض مراسم ذكرى الأربعين المُقامة في بيته، حين رأى الماء يتحرك ببطء وكأن هناك من يحاول الخروج من تحت سطحه. ضيَّق عينيه واقترب. الماء يتكتل ويقترب منه. سقط على ظهره، ظل يتراجع جالسًا على رُدفيه وهو ينظر في ذعر إلى التجسد المائي الذي يقترب منه كالغريق الزاحف العاجز عن الوقوف.

الكيان ضخم، ظل منحنيًا مُعتمدًا على ذراعيه الطويلتين بينما باقي جسده في الماء. لدهشته سمع صوت خفيض، كأنما صوت قيثارة مصرية قديمة؛ صوت رقرقة ماء النيل يتشكل ليصير كلامًا مفهومًا بلهجة غير مألوفة لديه. لهجة خشنة تتجاهل حروف المد وتُقسِّم مقاطع الكلمات تقسيمًا عنيفًا.

- هولّي .. لا تخف. أرجوك.. افتح قلبك. دعه يعرفني، دعه يقبلني كما قبل أوشاري..

- أنتِ.. أوشاري؟! روحها؟

- لست أوشاري، لكني أعرفها وكنت معها حتى رحلت غربًا، هي الآن في نعيم، طفلة أبيها تلعب في خيره.

- لا أفهم.. ما أنتِ؟

- دع قلبك يقبلني يا هولّي، حينها ستعرف من أكون..

تراجع الماء إلى النيل، وظل قلب خولي يتواثب في صدره. عدا

حتى وصل بيته، فدخل على النساء مُلطخًا بالطمي، ينادي خالته لتتبعه إلى الخارج.

- أنت قابلت واحد من ناس النهر يا خولي؟!

- هذه أساطير يا خالة.. أساطير.. أعتقد أنني رأيت روح أوشاري.

نظرت الخالة إلى عيني خولي السوداوين وقد ابتسمت أخيرًا بعد أربعين يومًا من الحداد وطلاء الوجه بالنيلة الزرقاء.

- ستكون باش ريس النيل يا خولي! ستكون باش ريس النيل!

- هل جننتِ يا خالة؟!

- اقبلها يا خولي في قلبك.. هذه هي زوجتك ونصيبك. هي اختارتك وتعرفك منذ وُلِدت. الطمي يحن إلى الماء..

قالتها وهي تعتصر كفيه المُبتلتين بالعرق، وقد لاحظ أنهما الآن لا يفرقان عن الطمي في شيء.

لم يكن خولي مُتعلمًا، لكنه كان يعرف الكثير من القصص والأساطير والحقائق التاريخية، وقد تعلم الإنجليزية والفرنسية سماعيًا مع عمله في النيل في أسوان، لذا كان يعرف مُتناقضين في نفس الوقت؛ الأساطير أساطير لكنه يؤمن بها، والواقع واقع وهو يؤمن به.

عاش خولي ثلاثة أعوام دون أن يرى المخلوقة مرة أخرى، أثناءها حاول كثيرًا خِطبة بنات من معارفه لكنه لم يكن يجد لأي منهن مُتسعًا في قلبه، ولم يعد يسمع في أذنيه سوى صوت القيثارة الرقراق.

وقتها شعر بقلبه يتغير، وكأن بداخله بوصلة تشير دومًا إلى شاطئ النيل.

ركع على زُكبتيه ليلًا أمام الشاطئ وهمس:

- قلبي صار أطلالًا من بعد رحيل أوشاري، أحاول فتحه فتتهدم جدرانه وأدرك أنك أنتِ القادرة على ملء وحشته.. أنا أتعذب والخواء يلتهمني..

امتد لسان الماء بسرعة البرق وجذب خولي إليه، في لحظات غمرته الظُلمة والبرودة وخلا صدره من الهواء.

وغرق خولي..

***

- ثم؟

- ثم وجدوني على الشاطئ في الصباح، فاقد الوعي البعض فسَّر الأمر أنني حاولت قتل نفسي، فأنا لم أتعايش قط مع رحيل أختي، لكن خالتي كانت تعرف الحقيقة، وقد أطلقت زغرودة تلقائية حين أفقت ظنوها من فرحتها بعودتي، لكنني عرفت ما تعنيه.

- وماذا حدث لك حين خطفتك الـ.. مخلوقة؟

- لا أذكر.. وحتى الآن لا أعرف، لكنها صارت لا تفارقني حين أحتاجها، ولا أفارقها حين تحتاجني. رغم أننا من عالمين مُنفصلين، لكنها تخرج لي أحيانًا فنشاهد النجوم، وتأكل من أكلي، أو أغوص أنا في النيل أحيانًا فتُريني عالمها المُنير الرقراق وتُطعمني من أسماكه. نتحدث عن كل شيء، وتحكي لي

تلك الحكايات التي أحكها للناس، وأحكي لها يومي ومشاكلي وأحزاني. نتقاسم كل شيء ونتشارك كل شيء. هي زوجتي وملاذي ولا أرضى عنها بديلًا.

- لكن هذا وضع غير طبيعي يا ريس خولي.

- ما المقياس؟ أنا سعيد وهي سعيدة ولا نضر أحد بسعادتنا. كُفي عن التفكير وافتحي قلبك.. دعي كل شيء يمر عليه أولًا وهو يعرف طريق الإيمان وحده.

اتجه خولي إلى الماء ثم جلس القرفصاء ومدَّ يده نحوه وهو يهمس:

- تعالي.. صديقتك جاءت..

- صديقتها؟

وضعت سهير كفًا على فمها وهي ترى الماء يندفع نحوالشيخ، وتذكرت ما حكاه فوقفت بعيدًا تقبض على هاتفها المحمول في حقيبتها.

- لا تخافي يا مدام سهير.. أنت كنت تريدين أن تُصوريها مرة أخرى فلا بأس. افتحي قلبك لها..

أخرجت سهير الهاتف ونظرت عبر الشاشة. تساءلت لماذا تراها دون هاتف ولا يراها سواها؟ أليست جنية ماء من نوع ما؟

- كيف أراها؟ هل يراها الجميع؟

- هي رأتك وأنت طفلة، وأنت فزعتِ منها وسقطتِ في النيل ولم تغرقي. لو سألتِ والدك لقال أنك كنت تطفين على السطح

بمعجزة ما. كانت تحملك.

- ولماذا أنا؟ لماذا لم تنقذ أختك مثلًا؟

- ولماذا اختارتني زوجًا؟ ليس كل القلوب مَضَايف تُرحّب بضيوفها يا مدام سهير، وليس كل القلوب سكنًا دائمًا.. بعض القلوب سجون، وبعضها فِخاخ.

هزّت سهير رأسها يُمنةً ويُسرةً رأسها في هلع.

النيل مُخيف.. المخلوقات الخفية مؤذية، لقد آذتها ودمرت حياتها وحياة ابنتها. صاحت بعينين دامعتين:

- اطلب منها أن تبتعد عني.. رجاء..

- كما تشائين يا مدام سهير. ناس النيل لا يفرضون أنفسهم على أحد.

تراجعت المخلوقة إلى الماء ببطء كأنما جُرِحت، ولم يلتفت خولي إلى سهير مرة أخرى. ظلت تعتذر وهي تبتعد، تُغمغم، ترتجف.

ألقت نفسها في أول سيارة أجرة وجدتها، وطلبت رقم أسامة.

- أسامة، أنا في طريقي للفندق. لا تقُل شيئًا. أنا آسفة..

***

لم يتحدث أسامة إلى سهير حتى قالت هي وهما يستقلان سيارته من محطة القطار إلى منزلهما:

- أنا آسفة لكل شيء يا أسامة. قبولي بارتباطنا ونحن بعد مراهقين كان خاطئًا. أنت لم تحصل على فرصة قط للتفكير في

ضرورة زواجنا من الأساس. كنا طفلين اعتدنا على وجودنا معًا، نذهب إلى نفس المدرسة وأحتمي بك في الطريق، وتتباهى أنت بفرق الخمسة أعوام بيننا. ثم صرنا مُراهقين، ورأيت أنني أختلف عن أي فتاة أخرى.. كنت فتاة من القصص الخيالية التي كُنا نقرؤها، فتاة ذات قدرات خاصة ترى الجن والعفاريت عبر الكاميرا. ثم صارت موهبتي حملًا عليك وعلى أبنائنا. درست علم النفس من أجل أن تحميني من هلاوسي وتركت حلم التمثيل، ووقف جانبي حين اخترت دراسة التصوير رغم خوفك عليَّ مما أراه في كاميرتي. لن أفرض نفسي عليك يا أسامة، وأنا مُستعدة لمناقشة أي حل تراه مُناسبًا لأسرتنا.. لكن رجاءً، لا تطلب مني أن أكون شخصًا آخر سواي. سأرى الأشباح والجن، وستتقاطع طُرقنا لأنهم يرونني. سأصورهم وسأفهمهم وسأجد طريقة كي أحمي نفسي ومن أحب منهم، لكنني لن أؤمن قط أن تجاهلهم في صالح أي طرف. أنا لن أتغير يا أسامة.. وعلى رانيا أن تُدرك هذا وترفع رأسها ولا تُخفي حقيقتها على أحد. هي تبحث عن أسامة الصاوي ليحبها كما هي، لكن الحقيقة أن أسامة الصاوي عاجز عن حب سهير زاهر كما هي.

أوقف أسامة السيارة بحركة عصبية وسط الطريق، وخلع عويناته ليمسح عينيه. نفير السيارات خلفه يلفه كإعصار ويمنعه

عن الوصول إلى سهير الجالسة جواره.

- سهير.. أحبك كما أنت، أحبك لأنكِ أنتِ، ولن أقتنع أبدًا بالاستسلام لموهبتك التي ستحرمني منك في يوم لا محالة، سواء بالانفصال أو.. أو الموت. موهبتك سرطان يأكلك يا سهير، أنتِ من تقبلين الموت بصدر رحب لأن مجابهته صعبة. أنت من تستسلمين وأنا لن أدعك تحرميني منك. افعلي ما تشائين، وسأفعل ما أشاء ولن يفترق طريقانا مهما بدوَا بعيدين. انتهى النقاش بالنسبة لي في هذا الأمر..

***



الفصل السادس

سألت دينا وهي تحدق إلى الأرنب:

- ما الحُب؟

أجابت سهير:

- الحب هو ما أخبرني به الريس خولي.. أن تقبل شريكك كما هو وتفتح له قلبك بيتًا مُرحبًا، لا سجنًا أو مصيدة.

- وكان قلب صفوان مصيدة، أليس كذلك؟

- ليس للشياطين قلب يا دينا.

قال أسامة:

- الحب هو حماية من تحب من نفسه. تعتبر سهير هذا النوع من الحب زيفًا، ومحاولة لتغيير الآخر. الحقيقة أننا جميعًا نحتاج لحبيب يحمينا من شر أنفسنا، ويقبل خيرها. لا يمكن أن أكون حبيبًا حقيقيًا وأشجع حبيبتي على تدمير نفسها.

همست نهلة:

- الحب تضحية يا دكتور أسامة، وجزء من قبولك الآخر هو تضحيتك براحتك. أعني.. أنا أعرف أن لعصام جنية عاشقة، أو هكذا يقولون. أعرف أنني ربما أكون في خطر، لكنني أتمسك به وأحبه ولو طالت يداي هذه المخلوقة لمزقتها.

- نحن لا نختلف في هذه النقطة يا ابنتي، أنت فقط وسَّعتي منظور الحديث لا أكثر. أنت تحمين عصام من شر خارجي وأنا أحاول أن أحمي من أحب من شرورهم الداخلية التي تجعلهم

أكثر غرضة لهجمات الشرور الخارجية. أتفهمين؟

غمغم محمد موسى:

- لديكم جميعًا حق، فما حدث مع الطبيب السفاح هذا خير دليل على أنك إن طاوعت من تُحب على شر نفسه سيضيع وستتحول أنت إلى شيطان بدورك.

استعادت سهير ما طلبه صفوان منها، وكانت في حاجة ماسَّة إلى وقت تقضيه مع نفسها.

- سأصعد إلى السطح.. وحدي. لا تقلق عليَّ يا أسامة. أنا فقط في حاجة إلى التفكير دون مُشتتات.

الصمت.. الليل.. النيل..

أخرجت كتاب البُلهان من حقيبتها، وقلَّبت صفحاته. الكتاب الذي يريده صفوان مقابل أن يُعيدهم إلى البر في أمان.

لكن لماذا يُريده؟ وهي يمكن الوثوق به؟

هل في هذا الكتاب ما يُشكل خطرًا عليه؟

راحت سهير تربط بين صفوان ودينا، وقاسم ونِدا، خولي وساكنة النيل، وعصام وجنيته العاشقة. أربع تجارب مُختلفة لعلاقات بين بشر وكيانات خفيَة، لكن لا يوجد عوامل مشتركة بين الحالات الأربع. هل يكون هذا دليل على عدم وجود جن عاشق؟ أم تأكيد على وجوده في حالة دينا فقط وربما قاسم؟

هناك شيء لا تعرف كيف تصفه، حالة من انعدام القدرةعلى تنظيم التفكير. ثمة شيء يدور خلف زجاج مُعتم، تراه ولا تراه،

يزعجها لكنه قد يكون الحل.

تتحاشى النظر إلى النيل..

ما رأته سهير حين أرغمتها دينا على الإمساك بالدمية كان غريبًا.

رأت عالم الظُلمات ورأت صفوان وتذكرت فورًا ما قلتُ عن ترجمة العقل البشري لأشكال الشياطين بما يتناسب مع قدراته، وأن ما تراه ليس شكل صفوان، بل هو ترجمة عقلها لشكله الطاقي.

همست لي شياطيني:

«كتاب البُلهان الأصلي، لا تمسَّه الشياطين، ولا يقرؤه سوى البشر. هذا الكتاب أحد سُبُل أبناء الطين للحماية من الجن ومِنَّا.

لا تتركه يا آدم.. لا تتركه..

قبضت على الكتاب، فرأيت الدخان يتسرب من مسام ذراعي، وشعرت بحريق هائل بداخلي فألقيته بعيدًا. أحتاج إلى إنسانٍ أثق به يحمله بعيدًا عن ذي الرمح.

لا يمكن للشياطين أن تستخدم أشياء مادية دون أن تسكن جسدًا بشريًا، وأنا شيطان يسكنه بشري، أو بشري يسكنه شياطين..

سرعان ما سيُدرك ذو الرمح هذا، وسيجد شيطانًا يستحوذ على بشري دون أن يسكن جسده، فيكلفه بأخذ الكتاب مني.

أمسكت عصاي -عصا أبي- ودفعت الكتاب بها حتى أدخلته في صندوق، أغلقته وحاولت حمله، لكنني لم أتحمل أكثر من نصف

دقيقة.. لا بأس..

اتصلت بخدمة توصيل الطرود، وأعطيتهم عنوان الساحر، ثم باستخدام ساعتي أقمت رَصَدًا حولي لا يراني فيه إنسي أو كيان خفي، حتى جاء عامل التوصيل..

هكذا وصل الكتاب سهير.. الإنسية التي أثق بها ولا رغبة لديها في استخدامه.

***

نظرت سهير إلى صفوان مُتسائلة، فقال لها:

- هذا هو الساحر الذي تثقين به. يضعك في موضع خطر، يستعملك كطُعم لاصطياد الراغبين في الكتاب. هو لا يستطيع حمله، لكنك تستطيعين.

- وأنت؟ ما غرضك من كل هذا؟

- أنا من اختارني مامون للحصول على الكتاب.

- ولماذا دينا بالذات؟

- هي الأقرب لك. نهلة أكثر عقلًا من أن تفتح لي الباب، ابنتك مُحصّنة لأنها أم شيطان الرعب المقدسة.. دينا جاهزة وتحت الطلب منذ أعوام، وأخيرًا وجدنا لها مهمة.

- انتظر لحظة.. ماذا تقول؟

- دعكِ مما أقول. أعطي دينا الكتاب أو تموتون جميعًا.

- وماذا ستفعل هي به طالما أنتم عاجزون عن لمسه؟

- ستقرؤه لنا وسنكتبه بطريقتنا.

- ثم؟

صاح صفوان بصوت سرى في شرايين سهير مباشرة:

- أعطيها الكتاب وإلا تموتون!

عادت سهير من شرودها لتجد باب الحمام مفتوحًا أمامها، ودينا تقف في نهاية الرواق ترمقها في صمت.

***

صلّت النساء بالأسفل والرجال بالأعلى، جلست سهير جوار رجاء شاردة، ثم همست لرجاء:

- رجاء.. ثمة شيطان هنا، في هذه الدمية.

- هذه فتاة مُختلة يا أختي، و..

- كلا.. هي ليست مُختلة. الفتاة تعرف بشأن كتاب البُلهان معي، والشيطان الذي يرافقها يريده.

عقدت رجاء حاجبيها وقبضت على عصاها. لا يعرف أحد أن الكتاب مع سهير سواها، كما أن أختها ليست مجنونة.

- هل هذا الشيطان هو المُتسبب فيما نحن فيه؟

- لاشين يقول أن الشياطين تتأثر بالمجالات المغناطيسية وتؤثر فيها، هذا يُفسر تعطل الهواتف والمُحركات، أليس كذلك؟

- وما علاقة الشيطان بنا جميعًا؟

- أعتقد أنه يلوي ذراعي ويلوي ذراع دينا أيضًا كي لا تُقاومه.

أتذكرين كيف آذى نهلة؟

- وماذا سنفعل؟ ولماذا يريد هذا الكتاب؟

- به معلومات تُمكن الشياطين من السيطرة على الجان أو شيء من هذا القبيل. المهم.. لو أعطيته الكتاب لا أضمن أن يفي بوعده ويتركنا وشأننا.

- وإن لم تُعطه له؟

- سيقتلني وتحصل دينا على الكتاب.

- يا ربي! وهذا المسخ المدعو لاشين، أكان يعرف أن الكتاب خطر عليكِ؟

- هذا ليس مهمًا الآن يا رجاء.

قالتها سهير بصوت مرتجف منخفض. هي تعرف، لكنها لا تجرؤ على مُصارحة أختها.

- ألقي الكتاب في الماء.. احرقيه..

- سيقتلنا انتقامًا يا رجاء.

- إذًا سلميه له.

- وماذا إن لم يفِ بوعده؟ هذا.. هذا الكتاب.. لا يمكن أن أسلمه له أبدًا.

- نحن ندور في دوائر... ما العمل؟

***

صعدت رجاء إلى السطح مُعتمدة على ذراع سهير، كان أسامة

بالأعلى جالسًا مع قريبه، بينما عصام شارد كعادته وسط أصدقائه عند الطرف البعيد.

تبعت دينا المرأتين ووقفت النسوة الثلاث جوار السور أقرب إلى عصام ومن معه.

مسحت دينا عينيها وقالت لسهير:

- أنا آسفة حقًا.. ليس لي أي ذنبٍ في توريطك.

- أنت ورطتِ نفسك. لا بأس.. لا بأس.

- هل ستُعطيني الكتاب؟

- دينا.. هل تريدين حقًا أن تساعدي هذا الشيطان؟

- أنا لا أستطيع الحياة بدونه.. أعرف أنه دمَّر حياتي وفُرصي في الزواج، لكنني.. زوجته.. وأحبه، وأعتقد أنه..

- هو يستغلك يا دينا.. عزلك عن أهلك وأصدقائك ومستقبلك، أوهمك أنك بخير معه. كيف عرفتِ أن الكتاب معي؟ وكيف عرف أننا سنكون في العرس على متن باخرة؟

- هو من ألهمني أن أقترح موضوع الباخرة على نهلة وأقنعتها به. هو يعرف أنك لا تُفرغين حقيبتك أبدًا ولا تتركين الكتاب في الستوديو كي أسرقه. كان عندي أمل أن أسرق الكتاب دون أن تشعري، لكن الغُرس فسد تمامًا ولم أجد لحظة تنشغلي فيها وتتركي حقيبتك كي تصوري الزفاف..

بدأت رجاء في السعال، وقد ارتكنت إلى كتف دينا تكاد تلفظ أنفاسها.

- هل أنت بخير يا «طنط»؟

- أجل.. أجل.. لا تقلقي..

ربتت سهير على كتف رجاء وهي تسأل دينا:

- أنت تعلمين أنني أصور الشياطين؟ لذلك رفضتِ أن أصورك؟

- أجل.. وكنت أخطط أن أصادقك وأسرق الكتاب منك.

- لماذا اخترتِ أن يُقام الزفاف في النيل؟

- بصراحة.. أنت تثرثرين أكثر من اللازم، وكل من سمعوا برنامجك يعرفون خوفك من النيل. صفوان هو من اختار هذا المكان كي يستطيع الضغط عليكِ لو فشلت لأي سبب في سرقة الكتاب. أنا آسفة للغاية.. أنا فقط أحبه يا أستاذة سهير، هل تفهمين؟ هل شعرتِ يومًا بمشاعر مُشابهة تجاه لاشين؟ هو أيضًا شيطان.

نظرت رجاء إلى سهير كأنما تُحذرها من مجرد التفكير في سؤال دينا الشائك، ثم أكملت نوبة السعال والشهيق. قالت سهير محاولة الحفاظ على هدوئها:

- دينا.. يجب أن تقاومي هذا الشيطان. الدمية معكِ هي ما نُسميه برأس الاستحواذ. صفوان لا يحتل جسدك، بل هو مُعلَق بتك الدمية. رأيت هذا في رحلتي إلى اليابان.. لو أنك تسمعين برنامجي فأنتِ تعرفين ما أتحدث عنه. صفوان هذا لم يقترب منك لأن هذا يروقه، بل هي مُهمة مُكلف بها من شيطان أعلى.

- وكيف عرف أن الكتاب سيكون معك؟ أو أن لاشين سيجد الكتاب من الأساس؟ صفوان يعرفني منذ عامين.

- الشياطين توزع قواتها في أي ثغرة بينها وبين البشر،يمَسُّون الناس أو يستحوذون عليهم ثم يكمنون في انتظار استغلالهم. لقد وجد لاشين الكتاب، وليس منطقيًا أن ينتظر الشياطين عملية استحواذ جديدة كي يحصلوا عليه. هم يُحركون جنودهم الكامنين. لهذا سَكَن صفوان بعد فترة من استحواذه عليكِ، ولهذا يبدو أن الممسوسين يشفون بلا سبب واضح، لكنه ليس شفاءً، بل كُمُون للنشاط الشيطاني.

- ماذا تعنين؟ ماذا أفعل؟

- أنتِ محظوظة.. تخلصي من هذا الأرنب. الحرق وسيلة فعَّالة ولن يضرك هذا في شيء.

- كلا!

ابتعدت رجاء ببطء عن موقفهما وهي تضم معطفها وتشير لأسامة أن يظل مكانه. فتحت دينا حقيبتها الكبيرة وهي تغمغم:

- هل تحبني يا صفوان؟ هل أنت واثق أنني سأفعل أي شيء من أجلك؟ صفوان؟ صفوان؟

قلبت دينا محتويات الحقيبة على الأرض فلم تجد الأرنب، نظرت نحو رجاء ولمحت الانبعاج تحت معطفها.

- أيتها الشمطاء الكريهة!

تحولت ملامح دينا الرقيقة إلى ملامح وحش وهي تنظر إلى رجاء وتهُم بالانقضاض عليها. أخرجت سهير كتاب البُلهان من حقيبتها سريعًا وهتفت تلفت نظر دينا:

- دينا.. ها هو الكتاب.. تعالي لتأخذيه..

نظرت سهير بطرف عينها إلى أسامة ثم إلى رجاء التي أخرجت الأرنب من معطفها، ففهم على الفور. هرع إلى أخت زوجته المُسنة يأخذ منها الأرنب ويتجه نحو السلم المؤدي إلى الطابق السفلي وينادي: - فاطمة.. أم عصام..

تراجعت سهير ببطء وهل تلوح بالكتاب، بينما دينا تقترب منها بملامحها الشيطانية. كانت تعرف أن دينا قادرة على قتلها كما حاولت قتل خطيبها وصديقتها بل وأخيها. كانت تراهن عن سرعة تصرف أسامة. هتف أسامة وهو يلقي الأرنب لفاطمة التي تنظر إليه من أسفل:

- أحرقي الأرنب على الموقد فورًا. لن أترك سهير وحدها.

هرع الشباب الجالسين مع عصام يحيطون بدينا ويحاولون الإمساك بها، كانت وقتها تفوق قوتهم جميعًا. وسط كل هذا ظل عصام يحدّق إلى دينا ويرتجف، والعرق ينهمر على حاجبيه الكثيفين. هرول أسامة إلى سهير، وحاول جذب الكتاب منها:

- اتركيه لي..

- هذه مسؤوليتي يا أسامة.. أنا من قبلت بها. دينا.. تعالي خذي الكتاب..

انفلتت دينا من بين أيدي الشباب واندفعت نحو سهير برأسها كالثور، طارت سهير خفيفة الوزن وارتطم ظهرها بالسور الحديدي، ثم شعرت بدينا ترفع قدميها وهي تزأر وتتمسك بالكتاب في يدها. لفَّ أسامة ذراعه حول رقبة دينا كي يُفقدها الوعي، فتهاوت لكن سهير كانت تطير في الهواء، وتنقلب رأسًا على عقب، تهوى نحو الماء المُظلم..وصرخات نساء تدوي..

الفصل السابع

سيوة- مارس ٢٠٢٢

لماذا قد يحب الشيطان؟ .. لنفرض جدلًا أن الشيطان قادر على الحب، كما هو قادر على الكراهية. النقيض يظهر بنقيضه، وإلا فلا يكون موجودًا. لا نور بلا ظلام، لا أرض بلا سماء، ولا كراهية بلا حب... إذًا، لماذا قد يحب الشيطان؟

أغمض عيني وأنا أرى سهير تهوى إلى النيل. يفلت قلبي عِدة دقات، وهي من المرات النادرة التي أشعر فيها بدقات قلبي أو تسارع أنفاسي.

منذ شهرٍ تقريبًا، كنت ومهدي أبركان في السينما. قطعنا تذكرتين لحفل العاشرة صباحًا وألقينا بهما إلى القمامة ثم دخلنا قاعة العرض معًا بالانتقال الفوري. اختفاء-انتقال-تجسُّد.

بالطبع عبوري من خلال جهاز كشف المعادن عند البوابة سيُعطله، فضلًا عن إشاعة الذعر في كل الموجودين، أما مشكلة مهدي فهي أكبر؛ لن يمر وهو مُدجج بالخناجر تحت قميصه. لا يتحرك مهدي أبركان بلا خناجر، ولا يقبل أن يخلع التمائم الفضية التي تتدلى حول عنقه ومن أذنيه.

جلسنا نشاهد فيلم باتمان الجديد. السينما خالية تقريبًا إلا من بعض المشاهدين في الصفوف الأولى والوُسطى، وكنت ومهدي جالسين في أبعد نقطة عن كل شيء.

قال لي مهدي:

- أعرف أن كتاب البُلهان معك. ذو الرمح رآك تأخذه.

- كان اتفاقنا أن آخذ الكتب التي نجدها عن هذا الساحر العراقي.

- لم أتصور أن لديه كتاب البُلهان الأصلي! ما رأيك أن أنسخه لك، فتحصل على نسخة تستطيع لمسها، وتحصل ديهيا على النُسخة المُحصنة؟

- لا أحتاج إلى نسخة. أتعرف أن أفلام كريستوفر نولان هي أفضل أفلام باتمان؟

- كانت ثلاثية وانتهت، صنع باتمان خاصًا به، ضعيف مُتذبذب. بشري.. أنا أفضل باتمان الخارق. كيف ستقرأ الكتاب؟

- بعيني.

- آدم!

- لن أعطي الكتاب لديهيا يا مهدي. سأحرقه لو عجزت عن استخدامه.

- ديهيا تُحبك. قلبها يتمزق عليك. هل ستجد مكانًا آخر إلا مملكتها تستطيع فيه أن تكون أنت دون أن تخشى لوم الناس أو كراهيتهم أو محاولاتهم لقتلك؟ كلنا يحتاج إلى الانتماء لجماعة تدعمه وتُحبه.

- أفضل الوحدة على أن أختار جماعة تقبلني كم انا لتستغلني.

- أنت اخترت جماعة يا أخي العزيز. أنت اخترت سهير ومهاب اللذين يريانك شيطانًا لا أكثر.

صمتُّ، وأملت علبة الفيشار نحوه. غاص في كرسيه وصَمَت،

بينما راح اسم سهير يدور في عقلي.

لقد اخترت سهير منذ خمسة وعشرين عامًا. اخترتها ولم أكن أعرف من هي ولم أكن أعرف ما سأكون عليه.

بعد السينما -وكنت في القاهرة- ركبت سيارتي وذهبت إلى طنطا للقاء سهير. تسألوني لماذا لم أختفِ وانتقل إلى هناك بدون سيارة، فأذكركم أنني أحب أن أظل بشريًا طالما لا داعي لغير ذلك. الحياة التي تتخيلونها عني أو عن مهدي أبركان أو حتى الشيطان جبر ما هي إلا أضغاث دراما وشُغل سينما لا أكثر.

في الطريق شغّلت أغنية أحبها منذ كنتفراهقًا يتعلم الإنجليزية ليقرأ كتب السحر. كان لدي جهاز «ووكمان» أضع فيه شرائط الكاسيت التي سجلت محتواها بنفسي من الراديو.

كان هناك صبي..

صبي غريب مسحور..

يقال أنه جاب الأراضي والبحار القصيَّة.

صبي خجول حزين.. حكيم..

وفي يوم، في يوم سحري تقاطع طريقانا..

بينما يحكي عن الملوك ومُهرجيهم..

قال لي:

أهم ما ستتعلمه؛ أن تحب وتُحَب.

المُغني نات كينج كول ذو صوت يذيب القلوب، يبعث بك إلى

الماضي رغمًا عنك، ويضع أمام عينيك منظارًا مُكبرًا لترى ما أخفته طفولتك عنك من تفاصيل.

رائحة الورد التي تفوح من سهير وهي ترتدي القميص الكاروهات والبنطال الجينز وتبتاع من المكتبة التي كنت أعمل فيها روايات الرعب والخيال العلمي، بينما يشتري زوجها الضخم كتب علم النفس وروايات الجاسوسية.

عالمان مختلفان جمع بينهما الحب، فما الذي يمنع أن يحب شيطان إنسية؟

لماذا يحب الشيطان؟ يحب الشيطان ليهرب من عذاب عالم الظلمات إلى عالم البشر..إجابة صحيحة؟ لا أعلم.

بعد أن عرفت أن سهير أكبر مني بثمانية أعوام، وعرفت أنها مُتزوجة، عاهدت نفسي أن أتركها وشأنها، لكنها كانت ثقب المفتاح الذي أطل منه على عالم بلا أب دجال وأم تخشى تحوُّلي إلى ساحر رجيم.

كنت أراقبها من بعيد، ترسم بقلم من الفحم كي تتحاشى استخدام الكاميرا أكثر من اللازم، لكن فضولها كان أقوى منها دائمًا. أسامة يحاول منعها من أن تكون هي، ثم ييأس فيحاول أن يظل معها كي يحميها، لكنه كان دومًا يعيق رؤيتها واستمتاعها بنفسها. خوفه يُشعرها أنها خرقاء ستوقع نفسها في المشاكل.

رغم كُرهي له -ولهذا أسباب كثيرة- كنت أشفق عليه. هي ليست له، وكل ما يفعله يزيد تعاستهما ويوهمهما أنهما مُتحابان تعيسان لا يعرفان سببًا لتعاستهما.

حين سمعت صوت سهير أول مرة منذ أعوام طويلة عبر يوتيوب في برنامجها بعد منتصف الليل، أفلت قلبي عدة دقّات. كنت أعرف خطة شيطان الرعب للإيقاع بها وبحفيدها عمر، لكنني فوجئت بصوتها الذي لم يتغير منذ أكثر من عشرين عامًا، وفوجئت أنها لم تعد تثق في نفسها مُطلقًا.

سهير زاهر تخاف؟ وممَ؟ من مستمعين؟! أسامة يرسل معها أختها، ويظل يتصل بها عبر الهاتف فيحرجها ويُظهرها بمظهر الطفلة التي لن تملأ مقعد مستشار الماورائيات أبدًا.

أصل طنطا، وأدخل ستوديو التصوير من بابه. القط مشموش يعوي ويقفز فوق الأريكة الجلدية ومنها إلى كتفي.

- انزل يا مشموش! عيب!

القط يخمشني، يعرف أنني من قتلت صاحبته القديمة -أم القطط- رغمًا عني. يعرف أنني شيطان لكن قشرة جسدي البشرية تمنعه من الفتك بي.

أخيرًا تقف سهير على أطراف أصابعها وتُنزله من فوق كتفي، ثم تودعه غرفة التحميض وتغلق الباب.

- آسفة.. تفضل.

- لا عليكِ يا.. صغيرتي.

أبتسم، لكنها تعقد حاجبيها في استنكار. تفتح حقيبتها وتُخرج كتاب البُلهان.

- أرسلت لي هذا من.. العراق؟ قرأت فيه قليلًا ولم أفهم شيئًا.

- هو ليس لقرائتك يا صغيرتي. اعتبريه أمانة عندك حتى أجد

حلًا فأستطيع قراءته.

حكيت لها مُشكلة الكتاب وسبب إرسالي إياه لها. قالت وهي تضع الكتاب على مكتبها:

- أتريدني أن أقرأه لك وتكتبه أنت؟ لا مانع.

- ربما أفعل ذلك لو لم أجد حلًا آخر. المهم، هذا الكتاب خطر، وسيسعى في إثره شياطين تستحوذ على أجساد بشرية.

- أتعني ممسوسين مثل الذين رأيتهم عند الشيخ لاشين؟ أشخاص يسكنهم شياطين؟

- كلا. الممسوس لا يستطيع لمس الكتاب لأنه يعاني مما أعانيه. لو لمس الكتاب، سيلمس الكتاب الشيطان بداخله. آنا أتحدث عن نوع آخر من الشياطين.

- أعرف ما تتحدث عنه.

- أعرف أنك تقرأين كثيرًا، وأعتمد على هذا.

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- لا شيء. احمي الكتاب حتى يظهر من يحاول أخذه منك.

- أنت تريد أن تصطاد مَن وراء إرسال ذي الرمح بالكتاب؟

- أنت تفهمينني. لا أظنها ديهيا. لو كانت هي، لجاءت وأخذته بنفسها، فهي بشرية.

هزّت سهير رأسها ووضعت الكتاب في حقيبتها وهي تقول:

- إذًا فوضعه في خزانه لن يُفيد. يجب أن يظل معي.

- هذا صحيح. هل توافقين على هذه المهمة؟

- وإن لم أوافق؟

- أنت وضعتِ الكتاب في حقيبتك، لا داعي لنفترض أنك ترفضين هذه المهمة.

ابتسمت هي، وابتسمت. أعرف أنها لن تُخبر أسامة، أعرف أن بيننا أسرار صغيرة تتزايد، ومنها سأصنع بيتنا الصغير السري. لن أحبسها فيه كما فعل الوغد الضخم المتعجرف، بل سيكون ملاذًا ترتاح فيه ثم تخرج لتحارب معي.

نحن فريق، لسنا قائدًا وتابعًا، نحن فريق..

***

لماذا يحب الشيطان؟ لأنه وحيد.. لأنه تعيس.. لأنه مكروه.

سهير زاهر مرساتي، أرض الميعاد، جنة الخُلد.. أملي في ألا تصدق نبؤة ديهيا وأعتلي عرش الشيطان بدلًا منه.

أريد أن أعود إنسانًا.. إلهي..

لماذا يحب الشيطان؟ لأنه يريد سعادة مؤقتة فانية يموت بعدها باسمًا..

لماذا يحب الشيطان؟ ربما لأنه ملعون، ولا يريد أن يخلد في الجحيم وحده، فيقبض بمخالبه على من يطول من بني آدم، فيتسلى بصرخاته في الأبدية..

لماذا يحب الشيطان؟ هلا يُجيبني أحد؟!

الفصل الثامن

تهوى سهير، تغمض عينيها، تتشبث بالهواء..

تتساءل أكنت أعرف أن كل هذا سيحدث لها؟ أجل كنت أعرف، وكانت هي تعرف ومُستعدة له، لكنها لم تتصور أنني لن أنقذها في آخر لحظة.

مرة أخرى، أذكركم أننا لسنا في قصة ولا فيلم، هذه هي الحياة..

تفتح عينيها وتتشبث في هذا الشيء البُني أمامها، صوت رجاء تصرخ. وجهها يُطل عليها من علٍ..

- سهيرا تمسَّكي بفكازي، سنرفعك.

يدها تنزلق.. الخوف يجعلها تتحرك أكثر من اللازم. في الأفلام تتشبث البطلة بيدٍ واحدة وتستطيع رفع نفسها بخفة ورشاقة، لا هلع ولا عرق ولا جاذبية.

نوبة فزع تلُم بسهير، الماء تحتها.. الطائر الغامض، ناس النهر، الطبقة الزيتية التي..

تترك يدها طرف الفكاز، فهي أضعف من أن تحمل خمسين كيلو جرامًا بالتأكيد.

أسامة ينادي اسمها، دينا تصرخ، رجاء تنهر الجميع..

تهوي..

عصام يطير ليصطدم بالسلم، أثر أصابع يظهر على عنقه، الطبيب المخبول يُجهض ندا، صفوان الذي يشبه الفتى السوري،

ناس النيل.. حعبي..

لكن سهير لا تشعر بالماء يلمسها.

يصمت الجميع فجأة، تنظر سهير حولها لتجد نفسها مُعلقة في الهواء.

«.. بسم الله الرحمن الرحيم.. ماذا يحدث؟»

«.. لا بد أنه الشيطان في الأرنب..»

« .. هي بركة الله وستره..»

ترى أسامة يتدلى من سور المركب وهو يمسك بحبل، يصل إليها وهو يهمس:

- لا تخافي يا هيرو.. حبيبتي، لا تخافي.. أمسكي بي.. أنت بخير..

تلف ذراعيها حول رقبته ويرفعهما الرجال. يرتميان على الأرض، يدس رأسها في صدره وترتجف هي. تجلس رجاء على الأرض وتغطي جسد سهير الضئيل بجسدها الممتلئ. تبكي..

الحقيقة أن الخمسين شخصًا حولهم كانوا يبكون. حتى فاطمة كانت تبكي ويديها مُسودتان من الرماد. في ركنٍ، رَفعت دينا رأسها تنظر إلى الجميع وتتساءل:

- ماذا حدث؟! أين أنا؟ أين أبي؟!

يتقدم عصام وهو يخلع سُترته ويمد بها يده لدينا كي تُغطي فستانها الذي تمزَق، ثم يقول في حيرة:

- جنيتي العاشقة هي من أنقذت أستاذة سهير؟ أرأيتم كيف

تعلّقت في الهواء؟!

لم يتحدث أحد، فقد كان توترهم وغرابة ما حدث مع سهير ودينا والعروس نفسها يبلبل الأفكار.

مدت سهير يدها نحو دينا وهي تقول:

- تعالي يا ابنتي..

زحفت دينا وكتاب البُلهان في يدها وقد تمزقت منه أول صفحتين. وضعت سهير كفها على كتف الفتاة فبكت الأخيرة.

- أنا آسفة لكم جميعًا.. آسفة لك يا نهلة لقد أفسدتزفافك. لا أعرف ماذا دهاني. أنا أحببت شيطانًا؟! أنا؟

- لا عليكِ.. شكرًا لوالدة عصام التي تشجَّعت وأحرقت الأرنب، ولم تخشَ أن يضرها ساكنه.

قالت فاطمة وهي تنهار جالسة على مقعد خشبي:

- لن أنسى طيلة حياتي صوت الصراخ الذي شعرت به يتردد في عقلي، والفزع الذي انتابني لدرجة أنني أحرقت كفيّ وأنا أحاول أن أنقذ تلك الدمية من النيران. كنت مذعورة.. ما هذا؟!

- لقد عاد صفوان إلى حيث جاء، ولن يؤذنا مرة أخرى.

- والكتاب؟

- لا تقلقي بشأنه، على الأقل الآن..

قامت سهير مُرتكنة إلى ذراعي أسامة ورجاء متجهة نحو دورة المياه. لحقت بها دينا وهي تولول:

- أستاذة سهير.. هل زال خطر صفوان حقًا؟

- أجل يا ابنتي.

- لماذا إذًا لم يعمل المحرك والهواتف المحمولة؟ أنا.. أظن أنه لا زال هنا.

نظر أسامة إلى سهير، ثم إليها. قالت رجاء:

- لو كان هنا ما ترك كتاب البُلهان يا ابنتي. يبدو أن هناك شيئًا آخر يدور ولا نُحكم عقلنا حوله. منذ الصباح والغرائب تحدث، ألا تذكرون ما جرى لعصام عند سلم صالون التجميل، وما حدث للسيارات؟

قال أسامة:

- لا أجد إلا أنها.. مصادفة.. أو..

- جنية عاشقة؟

- كلا.. ما العامل المُشترك بين كل ما يحدث؟ أتذكرون كيف بدأت الحكايات؟

قالت سهير وهي تغلق الصنبور وتجفف وجهها بالمناديل:

- بحكايتك عن عصام وجنيته. هذا ما تقوله رجاء.

- العامل المُشترك عصام فعلًا، لكن ما الإثبات أن هناك جنية؟ وإن كانت هناك جنية حقًا، فلماذا تنقذك أنت بالذات من الغرق وتحبسنا جميعًا هنا؟ الأهم، لماذا لم تظهر في كاميرتك؟

- أعتقد أنها تريد الضغط على عصام كي يصرف نظرًا عن الزيجة ، ولن تفيد من غرقي بشيء.. لكن.. لديك حق في

موضوع الكاميرا..

سأل أسامة في شرود:

- ماذا كان يفعل عصام في كل مرة يحدث فيها شيء غريب هنا؟

تذكرت سهير غرابة تصرفات عصام، وشروده حتى عن إنقاذ عروسه من الموت. كان أسامة يفكر فيما تفكر فيه.

- سهير.. لنُجرب شيئًا.

***

جلس أسامة جوار عصام في أحد أركان المركب، وقد طلب الأول كوبي شاي ساخنين وضعهما على السور المعدني الرفيع.

- عصام يا بُني، أتحب عروسك؟

- لا أعرف.. لا أعرف حقًا.. أحبها، وأشعر بالذنب تجاه والدتي. أحيانًا يا عمي ما أتشاجر معها بلا سبب واضح، ثم أحكي لأمي شجارنا مُتعمدًا كي أرى نظرة الرضا في عينيها.

- والدتك تعاني من مشكلة تعلق زائد بك. كلاكما تعانيان. أنت تصارع نفسك، وهي تصارع حب التملك داخلها. لكني أعرف أنها ذات أصل طيب يا بُني، وكذلك عروسك.

-لا تشغل نفسك بي يا عمي، وحمدًا لله على سلامة طنط سهير.

جاءت سهير ووقفت بيننا تلتقط طرف الحديث معنا وقالت:

- عصام..نحن جميعًا في خطر هنا، هلا حاولت التحدث إلى.. إلى جنيتك؟ اطلب منها أن نعود إلى بيوتنا.. اطلب منها أن تكف

عما تفعله. ركز في أن تتواصل معها، أتعرف كيف؟

- كيف؟

- هي جزء منك، تنفذ ما تريد أنت، ولا سلطان لها عليك إلا لو سمحت لها. الآن، ركز في تشغيل كاميرتي مثلًا.

مدت سهير يدها بالكاميرا، فأخذها عصام، ثم قال مُترددًا:

- لو استطعت إرغامها على تشغيل الكاميرا، هل سأستطيع أن أرغمها على تشغيل المحركات؟

- ألا تريدها أن تُشغل المحركات؟

نظر عصام إلى الكاميرا، فقالت سهير:

- تخيل أنك قادر على اختراق هذا الجسم المُعتم، ودع طاقة جسدك تشحن البطارية.. حرر طاقة جسدك، مخاوفك، قلقك..

مرت دقيقة وعصام ينظر أمامه ويحاول. نظرت سهير إلى أسامة، فهز رأسه ودفع كوب الشاي الساخن نحو الداخل. خلال أقل من ثانية، تعلق الكوب في الهواء والسائل بداخلها. عصام لا زال يحدق إلى الكاميرا، لكن أسامة أشار إلى خلف سهير رافعًا حاجبيه في دهشة.

التفتت سهير وصاحت:

- لقد كنا مُخطئين يا أسامة!

نظر لها عصام فسقطت الكوب على بعد سنتيمترات من فخذه. راح يرمش وهو لا يفهم بعد. أردفت سهير:

- لا توجد جنيه عاشقة يا عصام. والدتك هي الجنية..

اجتمع الركاب فوق السطح، وأنصتوا إلى ما تقول سهير، آملين أن يكون فيه الحل.

- للحظة أيقنت أنني أموت من الفزع، في تلك اللحظة مرَّت بي كل مشاهد حياتي، بما فيها الساعات التي قضيناها هنا. الحقيقة أن حكايات الجن العاشق هذه شتتنا جميعًا، كان لدينا مشكلة أساسية بدأت بعد وفاة الحاج إسماعيل رحمه الله، ولها ارتباط وثيق بعصام وبك يا أم عصام فقط. أعراضها توقَّفت فترة ثم عادت قُبيل الزفاف. نفس الأعراض القديمة عادت.. الخنق، الضرب، تأثر الآلات والأجهزة الكهربية. كل ما زاد عليها هو تلك القبة غير المرئية التي حالت بيننا وبين من حاولوا مساعدتنا.

قال أسامة:

- متى ظننّاها لوهلة مرتبطة بشيء أو كيان آخر؟

قالت نهلة:

- أعتقد بعد حكاية دينا وصفوان.

هزت سهير رأسها وقالت:

- بالضبط. كنت أتوقع محاولة لسرقة الكتاب، وربط عقلي بين ما حدث وبين الشيطان صفوان، ونسيت تمامًا الخيط الذي بدأنا به.. خيط عصام ووالدته.

غمغم أحد الشباب من أصدقاء العريس:

- لو أن للشيطان صفوان هذا قدرة على فعل كل ما فعل، فلماذا احتاج إلى الاستحواذ على دينا؟ كان أسهل عليه أن

يحاصرك في شقتك أو عملك، أليس كذلك؟

- نقطة مهمة بالفعل. خطة صفوان كانت تعتمد على دينا تمامًا، إما أنها تسرق الكتاب دون علمي، أو تقتلني وتأخذ الكتاب دون أن يراها أحد. في النهاية سهير زاهر تخاف من الماء وتصاب بالدوار وسقوطها فيه أمر مُتوقع. إذًا.. حبسنا هنا لم يكن له علاقة بصفوان.

تساءلت فاطمة في قلق وهي تمسك بكف ابنها المُرتبك:

- إذًا ما التفسير؟ وما علاقته بي؟

- ظاهرة الأشباح الصاخبة. يسمون تلك الظواهر «ظواهر تحكُّم العقل في المادَّة»، من بينها التحريك عن بُعد، والتحكم في حركة عضلات الجسد اللاإردية وزيادة إفراز الأدرينالين وغيره، بل يمتد تأثيرها إلى الأجهزة. كم مرة يتعطل جهاز الحاسوب حين نكون متوترين للغاية؟ كم مرة تنكسر الأكواب دون سبب حين يتشاجر الناس حولها؟ كم تشكو العائلات التي تعاني مشاكل دائمة من كثرة تعطل الأجهزة الكهربية واحتراق اللمبات؟ كل ما أقول هو أمثلة بسيطة عن ظاهرة تحكم العقل في المادة. أغلبه تحكم لا إرادي تمامًا يظهر في أوقات الشدة، وبعضه يظهر تلقائيًا في فترة المراهقة، لذا ربطنا بين تلك الظواهر وبلوغ عصام.

سألت نهلة:

- لكنها ليست أشباحًا، أليس كذلك؟

- كلا. ليست أشباحًا. هذا ما يحاول علم الباراسيكولوجي دراسته ونجح في توثيقه بعد استبعاد كل التفسيرات الفيزيائية

الأخرى. ظننا أن عصام لديه قدرة على التحكم في المادة، وقد أظهرتها معاملة والدته له ورفضها لحياته العاطفية حتى شعر بالذنب تجاه رغباته ومشاعر مراهقته، فحوَّلها إلى شبح أو جني يُعذبه ويعاقبه. لكننا رأينا تلك القدرة تنقذني، وتنقذ أسامة من كوب الشاي الساخن منذ لحظات، ولم نُدرك قط أن من أنقذنا فاطمة.

سألت نهلة:

- وهذه القدرة تجعلها تعذب من تحب يا أستاذة سهير؟

- ربما يا نهلة.. لقد حررت أم عصام وحشًا بداخلها يتغذىعلى الشعور بالغيرة والتعلق المرضي. وحشًا لا يفرق بين عصام أو دعاء .. أو بينك. الليلة هي الفرصة الوحيدة كي يقتل عصام مشاعره ورغباته ويلغي الزيجة، لكنه يحبك ولا يستطيع الانفصال عنكِ رغم خوفه من الجنية العاشقة، ورغم شعوره المستمر بالذنب تجاه والدته.

هزت نهلة رأسها وغمغمت:

- فقررت طنط فاطمة أن توقف الزمن وتجمدنا هنا، بل قررت أن تُخيفني فأهرب. أنا لن أترك عصام يا أستاذة سهير. لن أترك عصام يا طنط فاطمة. لن أتركه حتى لو حاولتِ قتلي. عصام يحبك ويحبني، لا يوجد أي تعارض. سيظل ابنك وسينجب مني أحفادك الذين سيملؤون عليكِ حياتك. أرجوكِ خففي الحِمل عنه..

قالت سهير وهي تقف، ثم تتقدم نحو فاطمة وعصام:

- أعرف أن ما فعلتِه به كان دون قصد، كان بدافع المحبة.

حرريه من قيوده يا أم عصام. ألا ترين وجهه الآن؟ انظري إليه وقولي لي أنك تريدين العيش مع شاب يُحركه شبحك الغاضب..

انفجرت فاطمة في البكاء، فعانقها ابنها، وهرعت نهلة تطوقهما بذراعيها. غمغمت والدة نهلة:

- لا إله إلا الله. قلب الأم..

- سامحني يا بني.. سامحيني يا نهلة.. لم أكن أعرف أنني..

طال عناق الثلاثة، وأخيرًا رفعت أم عصام عينيها نحو سهير وقالت:

- لقد قتلت دعاء..

- وأنقذتني، وأنقذتِ دينا. الخير داخلك حبيس، لكنه هو حقيقتك التي سجنتها سنوات المسؤولية والوحدة. الله وحده يعلم ما كنت تحت تأثيره وقتها. رحمها الله ورحمنا جميعًا..

نظرت أم عصام دامعة العينين إلى سهير التي كررت:

- استحضري كل طاقتك ومخاوفك وغضبك وندمك، وحاولي تخيل المحركات تدور، تخيلي الضوء يغمرنا، تخيل راحة النجاة على الوجوه. أنت تستطيعين يا أم عصام..

مرّت لحظات شكت فيها سهير وأسامة في صحة استنتاجهما. قال أسامة:

- أخرجي كل شيء سلبي بداخلك، وضعي مكانه كل المحبة التي نحبها لك.. نحن كلنا أهلك.

نظرت فاطمة إلى أسامة،فهز رأسه مشجعًا. نظرت نحو عصام

فضمها إليه وقبل رأسها وهو يهمس:

- لن نتركك يا أمي أبدًا.. أبدًا..

تراقصت الأضواء للثوان، تعالت الشهقات، ثم عاد كل شيء كما كان.

ركعت سهير أمام فاطمة وأمسكت يديها وقالت:

- أنت أنقذتني.. أنقذتنا جميعًا. رأيت الضوء داخلك يا أم عصام لحظة عرفت سر طلاق رانيا. الآن أطلقي هذا الضوء..

ستحاول فاطمة مرات ومرات، ستيأس، ستبكي، ستلومنفسها وتلوم ابنها وعروسه، ثم تحاول.. هي تعرف أن الضوء بداخلها، فهي أم قبل كل شيء، ولن تسامح نفسها على الظلام الذي سيعيش ابنها فيه..

تحركت الشمندورة في تمام منتصف الليل إلى مرساها،كبقعة مُضيئة وسط النيل المُعتم. لو أنك دققت النظر قليلًا خلفها رأيت ظلًا ضخمًا يتحرك تحت الماء، ولو أنك أنصتَّ، لميَّزت صوت القيثارة الرقاق يتغنى بحب النيل وناسه وحكاياته..

تعقيب

ينزل أسامة من سيارة سهير وهو يقول:

- سأشتري للأولاد دجاجًا مشويًا للعشاء أتأتين معي؟

- ظهري لا زال يؤلمني يا أسامة

قبل أن ينزل أمسكت كفه وقالت:

- أسامة لم نتحدث عن الكتاب منذ عودتنا من دسوق.

- عمَ سنتحدث؟

- لقد أخفيت عنك أمر الكتاب، كنت أخشى أن تخاف عليَّ وتمنعني من ممارسة ما ولدت من أجله. أعرف أنه يمثل خطرًا على حياتي، لكنني لن أستريح أبدًا في دور مصورة الأفراح هذا. لقد فات الأوان يا أسامة ولن أستطيع أن أعود إلى سهير القديمة التي كانت تخاف كاميرتها.

- وأنا أخفيت عنكِ ذهابي لأم عصام خشية أن تغاري لكن لا تعتبري أن فعلته أنت يساوي ما فعلت. أنا لم أعرض حياتي للخطر، لم أعرضك لفاجعة فقدي. سهير.. لن أتحمل أن أفقدك. هذا هو ملخص كل ما بيننا. لن أتحمل..

- أنت تحارب أشباحًا لا وجود لها. قد أموت وأنا أشرب الشاي، أو أنا أعبر الطريق. إن أقوى خصم للإنسان دائما هو شبح.. شبح يُطلَق عليه اسم الحقيقة.. الموت والفراق حقيقة، لكن ما قيمة هذه الحقيقة ما دمنا سعداء؟

- حقًا، ما قيمة تلك الحقيقة ما دمنا سعداء؟

يبتسم أسامة وينزل من السيارة متوجهًا نحو المطعمالقريب.

تجلس سهير في سيارتها، تسمع أغنية مُسجلة على شريط كاسيت قديم لا تعرف من أين حصلت عليه، لكنها وجدته في حقيبتها منذ أكثر من عشرين عامًا..

كان هناك صبي..

صبي غريب مسحور..

يقال أنه جاب الأراضي والبحار القصيَّة.

صبي خجول حزين.. حكيم..

وفي يوم، في يوم سحري تقاطع طريقانا..

بينما يحكي عن الملوك ومُهرجيهم..

قال لي:

أهم ما ستتعلمه؛ أن تحب وتُحَب..

تشعر بالبرد، تنظر جوارها لتجدني أغلق باب سيارتها خلفي.

- متى سيأتي أسامة؟

- خلال دقائق.

- لن أطيل عليكِ. مامون هو من أرسل دينا لسرقة الكتاب. الآن أعرف أن ذا الرمح جاسوس مزدوج. مامون لن ينسى أنني أول بشري فرَّ منه ومن عهد الدجالين، وصفوان من جنوده المخلصين، إن كان هناك شيطان مُخلص.

- هل تريد الكتاب؟

- أجل. وجدت له حلّا.

- ولو رفضت أن أعطيك إياه؟

- ماذا؟! لماذا؟

- أنا عرضت حياتي للخطر من أجله، وأنت تركتني أموت ولم تساعدني.

- لكنك لم تموتي، كما أنني أخشى الماء.

تنظر لي وتعقد حاجبيها، تظنني أمزح. لقد حاول أقراني في المدرسة إغراقي في الترعة وأنا في الصف الثاني الابتدائي، كانوا يعرفون أن أبي ساحر ويرغبون في معرفة إن كنت مثله أم لا، لكنني غطست كالصخرة.

- أنا أخشى الماء. تحولي لشيطان لم يمسح مخاوف طفولتي. صغيرتي، كيف ستتعلمين إن كنت تعرفين أن بابا لاشين سيظهر لإنقاذك كأبطال السينما؟

- كنت سأموت يا آدم!

- ما كنتُ سأتركك لو لم أعلم أن فاطمة ستنقذك، كنت أراكم كما أراكِ الآن.

- أسامة هو من أنقذني دون قوى شيطانية ولا قدرات باراسيكولوجية. أسامة غامر بحياته وأنقذني.

- ليكُن. أنت لم تموتي، وعلى الأقل لن تموتي قبلي.

- الكتاب لي.

- سهيرا!

- الكتاب لي يا آدم. اسرقه لو أردت، أو أرسل شياطينك ليحاولوا قتلي. لقد تعلمت الدرس.

أضحك، فتحنق شياطيني.

- صغيرتي كبرت.. فخور بك.

- لست صغيرتك.

- لا تنكري أنك استمتعتِ. لقد كنت وحدك تمامًا هذه المرة. في المغامرة القادمة سأتأكد من سقوطك في النيل. يجب أن تتحرري من هذه الفوبيا.

- لن أسقط وحدي في النيل، يجب أن تتحرر أنت أيضًا من هذه الفوبيا.

هززت لها رأسي مُحييًا، وقبل أن أخرج من سيارتها أشرت نحو الكاسيت وقلت:

- سجلت هذه الأغنية من إذاعة مونت كارلو. ستجدين تشويشًا وصوت رجل غريب عند نهاية الوجه الأول، فقد كان أنيس يناديني.

لم أكن في مزاج رائق لقيادة سيارتي، فسرت نحو نهاية الشارع أدندن..

.. كان هناك صبي..

صبي غريب مسحور..

يقال أنه جاب الأراضي والبحار القصيّة.

صبي خجول حزين.. حكيم..

أتوقف عند نهاية الشارع، وانظر خلفي فأرى ظل أسامة يقترب من السيارة، يركب جوار سهير ويلف ذراعه حول كُرسيها.

أدندن وأنا أمسح بللًا ما -لا أعرف مصدره- من على خدي:

- .. أهم ما ستتعلمه؛ أن تحب وتُحَب..

النهاية

*****